

الأيضاح

في علوم البلاغة

للخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد بن النعمان قفاري

الجزء الأول

الطبعة الثالثة

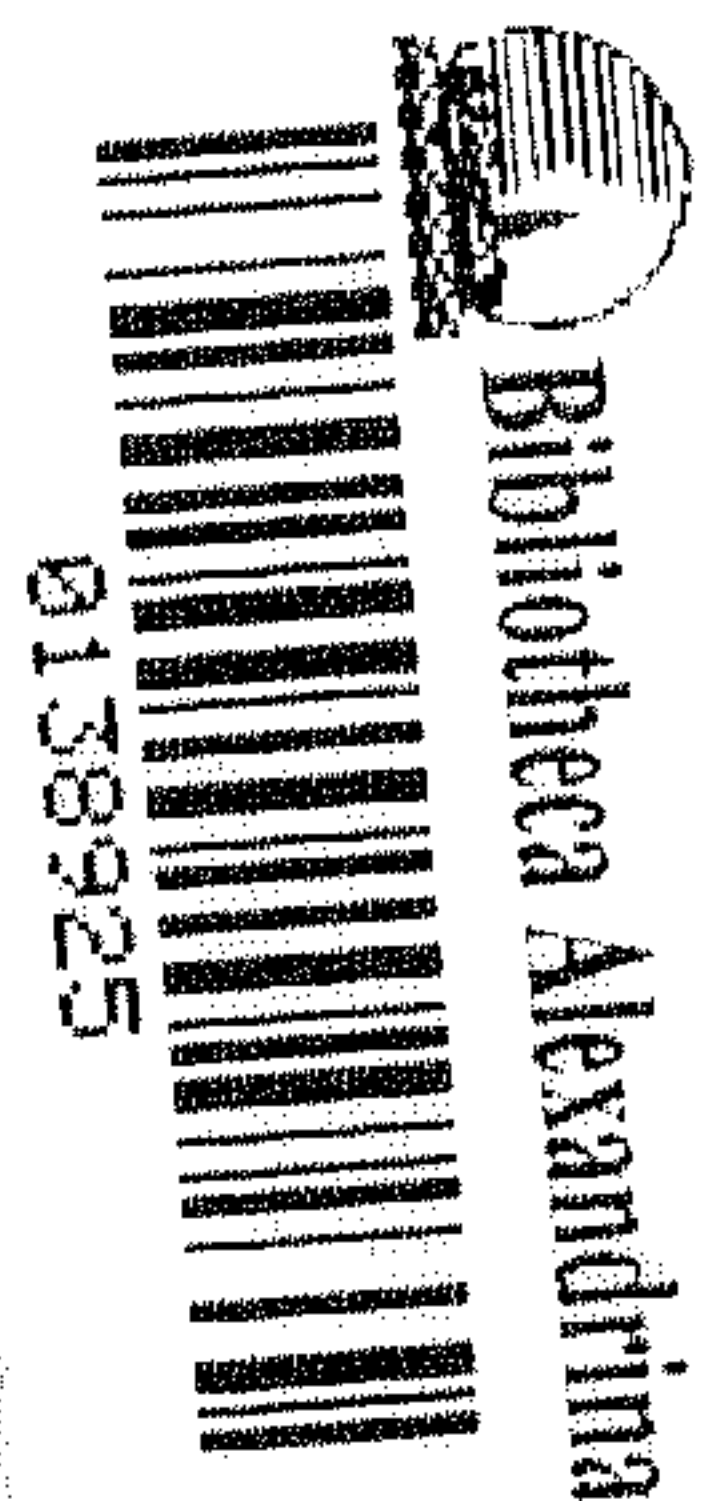
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

الناسخ

المكتبة الأزهرية للناسخ
رب الامراك خلف الجامع الأزهر الشريف

٥١٢٠٨٤٧.٥



الإيضاح

في علوم النبلاغة

للخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم صفاء

المكتبة العامة لمكتبة الإسكندرية
492.78
١٩٠٥

المجلد الأول

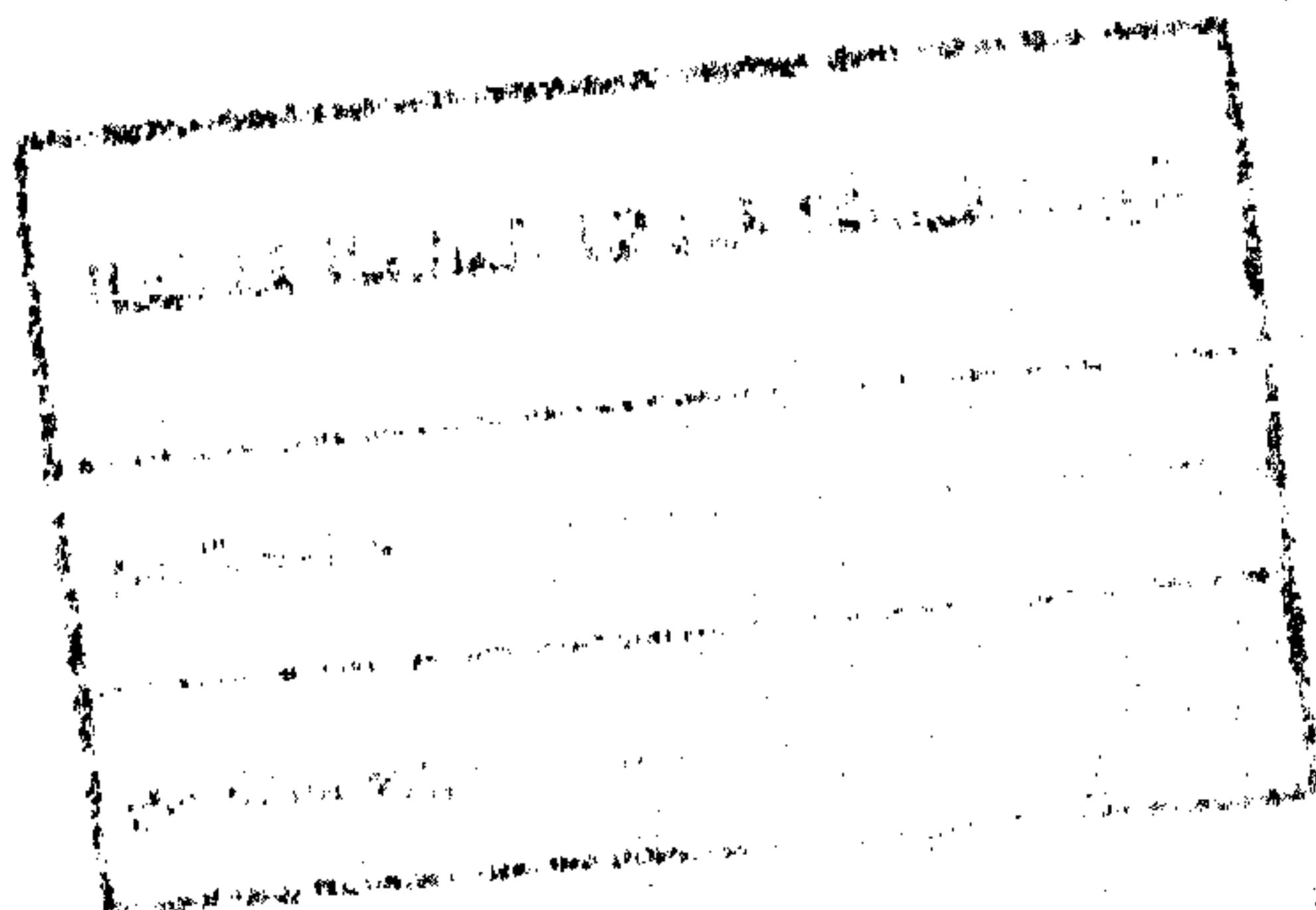


١٤١٢ هـ - ١٩٩٣ م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

المكتبة الأزهرية للنشر
٩ درب الانتراك خلف الجامع الأزهر الشريف
ت ٥١٢٠٨٤٧٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلمة الأولى

أحمد له وأسأله التوفيق والسداد ، وبعد :

فهذا شرح جديد مفصل ، لكتاب الايضاح ، تأليف العالم الامام الخطيب القزويني ، امام البلاغة وشيخ البيان ، المتوفى عام ٧٣٩ هـ .
توخيت فيه عمق البحث ، ودقة التحليل ، والعناية ببسط المسائل ، وحل المشكلات ، وأومأت فيه الى شتى المراجع والمصادر .
ليكون جامعا لمسائل البلاغة ومصدرا للدراسات العالية فيها ، ومرجعا للطلاب والدارسين والباحثين . والله يعلم مقدار ما أخذ منى من جهد وبحث ومراجعة ، ومع ذلك فقد ثابرت على كتابته وإخراجه ، ليسد النقص الذى نلمسه فى دراسات البلاغة .

وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ١٩٤٩ والطبعة الثانية عام ١٩٨٤ ، وهما هى ذى الطبعة الثالثة منقحة مهذبة ، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به العلم والثقافة ولغة الكتاب العزيز .
فهو وليى ، نعم المولى ونعم النصير .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

محمد عبد المنعم خفاجى

مقدمات

● نشأة البلاغة العربية ومراحل التأليف فيها :

١ - كان القرن الثاني الهجري أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة^(١) وعناصرها ، بعد فساد الملكات ، وقد أخذ العلماء فى بحث أصول بلاغات العرب ، وفى تدوين آرائهم فى معنى كلمة البلاغة والفصاحة . وأهم ما يؤثر من ذلك : وصية بشر بن المعتمر - من زعماء المعتزلة وتوفى نحو عام ٢١٠ هـ - فى البلاغة^(٢) ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة^(٣) ، وتعريف العتابي لها^(٤) ، ووصية^(٥) أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب ، ويقول البحتري : خير الكلام ما قل ودل ولم يمل^(٦) . وفى البيان للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند^(٧) ، ويقسمها الكندي فيلسوف العرب المتوفى عام ٢٦٠ هـ الى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، وفنوع بالعكس ،

(١) لا تجد فى العصر الجاهلى كلمات عن البلاغة الا ما روى عن عامر ابن الظرب حين سئل من أبلغ الناس ؟ فقال : من حلى المعنى المزين باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحريز (٢٠٦ ج ١ ، العمدة ، ٢٨٠ ج ٢ الامالى) . وفى العصر الاموى نجد لمعاوية كلمات فى البلاغة ولسواه ، روى أن معاوية سأل صحارا عنها فأجابته (راجع ٨١ ج ١ البيان ، ١٨ ج ٢ الكامل) .

(٢) ١٠٤ وما بعدها ج ١ البيان .

(٣) ٩١ ج ١ البيان ، ٢١٤ ج ١ العمدة ، ٧٥ ج ١ البيان ، ٤٤ - ٤٦ الرسالة العذراء ، ٢ و ٣ و ٢٢ و ٢٣ ج ٣ العقد ، ١٤٠ - ١٥٠ ج ١ زهر الآداب .

(٤) ٩٠ و ١٥٧ ج ١ البيان .

(٥) ١٥١ ج ١ زهر الآداب .

(٦) ٣٦ ج ١ المستطرف وتروى عن الثعالبي برواية أخرى : « ما قل

ودل » (٢١٨ ج ١ العمدة) .

(٧) ٧٨ و ٧٩ ج ١ البيان ، ٢٠ - ٣٨ الصناعتين ، ١٤٤ ج ١

زهر ، ٤٤ الرسالة العذراء .

وفروع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحدها^(١) ، وذكر بزر جهر حكيم
الفرس فضائل الكلام وردائله في كلمة مترجمة رواها صاحب الموازنة^(٢) .
إلى آخر هذه الكلمات والآراء .

٢ - ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات
الموجزة حول البلاغة وبحوثها . ومن هذه الكتب : مجاز القرآن لأبي
عبدة م ٢٠٧ هـ والفصاحة للدينوري م ٢٨٠ هـ^(٣) والتشبيه والتشيل
للفضل بن نوبخت^(٤) وصناعة الكلام للجاحظ^(٥) ، ونظم القرآن^(٦)
والتشيل^(٧) له أيضا ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد^(٨) . وفي
الكامل إشارات لمسائل كثيرة في البلاغة ، وكذلك الرسالة العذراء لابن
المدير ، والبلاغة للحراني^(٩) ، وقواعد الشعر لشلب ، وقد نشرته
عام ١٩٤٨ بشروح كثيرة ، والبلاغة والخطابة للمروزي^(١٠) والمطابق
والمجافس لابن الحروان^(١١) وتهذيب الفصاحة لأبي سعيد الأصفهاني^(١٢)
واعجاز القرآن في نظمه وتأليفه للواسطي المعتزلي م ٢٠٦ هـ ، وصحة
البلاغة للباحث ، وللسيرافي م ٣٦٨ هـ . ونظم القرآن لابن الأخشيد^(١٣) ،
وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ^(١٤) وكتاب الرد على من نفى المجاز في
القرآن للحسن بن جعفر^(١٥) ومن هذه الكتب أيضا المفصل في
البيان ، والفصاحة للمرزباني م ٣٧٨ هـ .

على أن أهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث ،

-
- | | |
|---------------------------------------|--------------------|
| (١) ٢١٩ ج ١ العمدة . | (٢) ١٨٣ الموازنة . |
| (٣) ١١٦ الفهرست لابن النديم . | (٤) ٣٨٣ المرجع . |
| (٥) ٣٨ الجاحظ لمردم . | (٦) ٤٠ المرجع . |
| (٧) ٧٦ ج ٦ معجم الأدباء . | |
| (٨) ٨٨ فهرست ، ١٤٤ ج ٧ معجم الأدباء . | |
| (٩) ١٧٨ فهرست . | (١٠) ٢١٥ فهرست . |
| (١١) ٢١٢ فهرست . | (١٢) ١٩٧ فهرست . |
| (١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست . | (١٤) ٣٢٤ فهرست . |
| (١٥) ٥٢٠ فهرست . | |

أو التي ألفت فيها خاصة هي : كتاب جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، ففي مقدمته بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة • وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألفت في هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة في عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة^(١) ويتكلم على السجع^(٢) ويشير إلى التفصيل والتقسيم^(٣) والاستطراد والكناية^(٤) والأمثال^(٥) والاحتراس^(٦) والقلب^(٧) والأسلوب الحكيم^(٨) ، والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامي^(٩) ويرى البلاغة في النظم لا في المعاني^(١٠) وهو ما ذهب إليه ابن خلدون^(١١) • والجاحظ يشيد بالايجاز^(١٢) ، كما يدعو في البيان كثيرا إلى ترك الوحش والسوقي ، ويحث على الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتعذيب في صناعة الكلام ، إلى غير ذلك من شتى ما دونه في البيان • • ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال^(١٣) ، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان ، وهي التي أوحى إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان • ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين المحدثين •

(١) ١١٦ ج ١ البيان .

(٢) ١٧٠ ج ١ و ٩١ ج ٢ البيان .

(٣) ١٨٠ ج ١ و ٨ و ٢٩ و ٣١ و ٨٠ ج ٣ البيان .

(٤) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ ج ١ و ٢٢٤ ج ٢ البيان .

(٥) ١٦١ ج ١ البيان .

(٦) ١٨٠ ج ١ البيان .

(٧) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان .

(٨) ١٠١ البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجي ، ٧٦ ج ٢ العمدة .

(٩) ٤٠ ج ٣ الحيوان .

(١٠) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون . ويقول شيلر : في الفن الشكل هو

كل شيء والمعنى ليس شيئا مذكورا .

(١١) ٨٣ و ٨٦ ج ١ ومواضيع أخرى .

(١٢) ص ٦ و ٧ الصناعتين .

٣ - وقد بدأ التدوين فى البلاغة على يد ابن المعتز الذى ألف كتابه القيم « البديع »^(١) وثعلب الذى ألف كتابه « قواعد الشعر » ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ . ثم كتاب الصناعتين لأبى هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للأمدى ، والوساطة للجرجانى ، وأعجاز القرآن للباقلانى ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة .

٤ - ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ . فآلف فى البلاغة كتابين جليين هما :

١ - أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢ - دلائل الإعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى . كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا .

٥ - وبعد عصر الجرجانى بحث الزمخشري فى تفسيره ، والرازى فى كتابه « نهاية الإيجاز » ، وابن الأثير صاحب المثل^(٢) السائر ، وبدر الدين بن مالك صاحب المصباح ، والتتوخي صاحب « الأقصى القريب » ، وكثير من العلماء ، فى البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء فى هذا الطور أبو يعقوب السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاقسى^(٣) ، الذى ألف كتابه « المفتاح » ، وجعله

(١) على نهجه ألف ابن منقذ المتوفى عام ٨٤ هـ كتابه « البديع » .

(٢) شرحه عز الدين بن أبى الحديد م ٦٦٥ هـ فى كتابه « الفلك الدائر

على المثل السائر » .

(٣) ٧٣ المفتاح .

أقسامها ، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها الى ثلاثة أقسام
المعاني - البيان - البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل
علم منها بالتفصيل .

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكي الى حد كبير ، من حيث كان
يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .

وبذلك تنتهى مراحل التأليف والابتكار فى بحوث البلاغة وتلدوينها
تدوينا كاملا .

٦ - وجاء الخطيب القزوينى المتوفى عام ٧٣٩ فآلف فى البلاغة
كتابه : تلخيص^(١) المفتاح والايضاح . وقد آلف الايضاح ليكون
كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكى
فى شىء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشى والتقارير وفى
مقدمتها الأطوال للعصام ، والمطول^(٢) للسعد وشروح التلخيص
وسواها . . . وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها فى هذا العهد : قوانين
البلاغة لعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ هـ ، والبيان لابن الزمكاني
م ٦٥١ هـ ، والمعيار للزنجاني م ٦٥٤ هـ ، وبديع القرآن لابن أبى الاصبغ
م ٦٥٤ هـ ، والفوائد الغياثية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرمانى
م ٧٨٦ هـ ، والبيان لشرف الدين الطيبى م ٧٤٣ هـ ، والطاراز ليجبى
ابن حمزة العلوى م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسبكي م ٧٧٣ هـ ،
والسمرقندية للسمرقندى وهى رسالة فى الاستعارات ، وتوفى
السمرقندى عام ٨٨٠ هـ .

(١) لذكريا الانصارى م ٩٢٦ هـ « مختصر تلخيص المفتاح » :
وللعباسى م ٩٦٣ هـ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص .
(٢) عليه كتاب فى شرح شواهد اسمه عقود الدرر فى حل ابيات
المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ فى ١٦٦ صفحة .

٧ - شروح المفتاح للسكاكي .

(أ) شرحه بتمامه المولى حسام .

(ب) وشرح القسم الثالث منه : الشيرازي م ٧١٠ هـ في « مفتاح
الفتاح » . والترمذي وهو معاصر للشيرازي ، والخلخالي م ٧٤٥ هـ ،
والسعد (٧١٢ - ٧٩١ هـ) ، والسيد م ٨١٦ هـ في « المصباح » الذي
ألفه عام ٨٠٣^(١) هـ ، وعماد الدين الكاشي . وله رسالة في حل المتشابهات
التي أوردها الخطيب على المفتاح ، والإيهرى سلطان شاه ، وطاشكبرى
زاده م ٩٦٢ هـ ، وشيخ زاده م ٩٥١ هـ ، والشرييني م ٧٦٩ هـ ،
والخوارزمي ، وقد فرغ منه عام ٦٤٢ هـ ، والفناري م ٨٣٤ هـ ، وله على
شرح السعد والسيد تعليقات ، وابن كمال باشا م ٩٤٠ هـ ، وسواهم .

(ج) واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجي م ٩٩٠ هـ ، والقزويني ٦٦٦ - ٧٣٩ هـ ، والإيجي
م ٧٥٦ هـ في الفوائد الغيائية ، وبدر الدين ابن مالك م ٦٨٦ هـ في
« المصباح في اختصار المفتاح » ونظم « المصباح » المراكشي ، ثم شرحه
وسماه « ضوء المصباح على تراجيز المصباح » ، واختصر هذا المختصر
ابن النجوية م ٧١٨ هـ ، وسماه « ضوء الصباح » ، ثم شرحه في مجلدين
في كتاب اسفار المصباح عن ضوء المصباح ، ولمحمد بن خضر « مصباح
الزمان في شرح المصباح » .

هذا وقد ألف السعد « المطول على تلخيص المفتاح للخطيب
القزويني » وانتهى من تأليفه عام ٧٤٨ هـ ، كما انتهى من تأليف مختصر
المطول عام ٧٥٦ هـ . وفرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر

(١) على شرح السيد حواش : البسطامي م ٨٧١ هـ ، والمولى اللطفي
م ٩٠٠ هـ ، ولحميد الدين م ٩٠٨ هـ ، ولأسعد الناجي م ٩٢٢ هـ ،
ولمحيي الدين الفنري م ٩٥٤ هـ ، وللشهاب الخفاجي م ١٠٦٩ هـ .

السعد فى مكناسة فى المحرم ١١٠٨ هـ ، وافته المنى السبكى من تأليف
شرحه « عروس الأفراح » على مختصر السعد فى جمادى الأولى
عام ٧٥٨ هـ ، وافته المنى الدسوقي من كتابة شرحه على مختصر السعد
فى شوال عام ١٢١٠ هـ .

٨ - يمتاز الايضاح للخطيب القزوينى بعدة ميزات ظاهرة : فهو
أوفى كتاب فى بحوث البلاغة ، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما
وأسلوبا ، وهو كثير البحث والتعمق والاستنباط للأسرار البلاغة
العربية ، فوق أنه كتاب تطبيقى جميل فى البلاغة ، وينقد القزوينى فيه
كثيرا من آراء السكاكى ، وإن كان يعتمد الخطيب فيه على عبد القاهر
والسكاكى كثيرا . ومع ذلك فالخطيب يجمع فى كتابه خلاصات لبحوث
علماء البلاغة فى شتى العصور حتى عصره ، والكتاب بعد ذلك غزير
المادة ، كبير الفائدة فى الأدب والنقد والبلاغة والبيان (١) .

وهناك مؤلفات جديدة ظهرت فى البلاغة فى عصر الحواشى ، ومن
بينها عقود الجمان للسيوطى . كما ظهرت فى العصر الحديث عدة
مؤلفات فى البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ
والاختيار .

وبذلك تنتهى مراحل التأليف فى البلاغة منذ نشأتها حتى الآن .

(١) شرحه الأقصرائى م ٨٠٠ هـ وحيدرة م ٨٢٠ هـ ، والأستاذ
الصعيدى والأستاذ التنوخى .

● الخطيب وأثره في البلاغة العربية :

والخطيب القزويني^(١) هو « جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن ، ابن خطيب دمشق » كما يقول جورجى زيدان ، وبتفصيل أوسع هو « الشيخ الإمام العالم العلامة خطيب الخطباء ، مفتى المسلمين ، جلال الدين ، أبو عبد الله ، محمد ، ابن حفص عمر ، القزويني الشافعي » كما يقول تلاميذه أو هو نفسه فى مقدمة كتابه الايضاح .

فهو من أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان لها ولا شك أثرها فى حياته وتفكيره وروحه .

ولد عام ٦٦٦ هـ ، وتعلم الفقه ، وتولى القضاء ، وانتقل الى دمشق ، وتولى الخطابة فى مسجدتها ، ثم تولى القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر ، اكتسب مالا طائلا ، ثم جاء الى دمشق وتوفى فيها . وأشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح ، والايضاح فى المعانى والبيان^(٢) ، وكانت وفاته عام ٧٣٩ هـ ، كما يقول صاحب الدرر الكامنة .

وتدل مؤلفات الخطيب فى البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة الأهم المؤلفات فى البلاغة وفى مقدمتها : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر ، والمفتاح للسكاكى .

ألف الخطيب مختصرا صغيرا للمفتاح فى البلاغة ، أو للقسم

(١) شذرات الذهب ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وسواها .

(٢) وقد حرف جورجى زيدان اسمه فذكره « الافصاح » بدل الايضاح (٤٤ ج ٣ تاريخ أدب اللغة العربية) .

الثالث بعبارة أوضح ، وسماه « تلخيص المفتاح »^(١) . لخص فيه ذلك السفر القيم وقدم فيه وآخر ، وحذف واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون ، « ومن العجيب أن يسمى كتابه بهذا الاسم ، وهو في رأى أحد الباحثين ليس بالتلخيص له وحده ، بل أشبه بأن يكون تلخيصا لكتابه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ولسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي . . . وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح في مقدمته »^(٢) . وقد يكون في هذا الرأى لون من المبالغة ، فمتن التلخيص ليس تلخيصا للأسرار والدلائل وسر الفصاحة في قليل ولا كثير ، إنما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح وحده ، وما فيه من روح التأثير بعبد القاهر فمرجهه الى المفتاح نفسه ، الذي اعتمد فيه السكاكي على عبد القاهر الى حد بعيد . وقد يستساغ ذلك في الايضاح لا في « تلخيص المفتاح » .

ثم ألف الخطيب كتابه الايضاح في البلاغة على ترتيب التلخيص ، وبسط القول فيه ليكون كالشرح له ، فأوضح مواضعه المشككة ، وفصل معانيه المجملة ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات في بحوثه ودراساته فيه ، كما يشير اليه الخطيب نفسه في مقدمة الايضاح . والكتاب « فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمي والرصانة الأدبية »^(٣) .

(١) شرحه الخلخالى م ٤٧٥ هـ ، وناظر الجيش م ٧٧٨ هـ والبايرتى م ٨٧٦ هـ ، وشمس الدين القونوى م ٧٨٨ هـ ، والتيزيتى م ٧٩٣ هـ ، والسيد عبد الله م ٨٠٠ هـ ، وعصام الدين م ٩٥١ هـ ، والسعد م ٧٩٥ هـ . . . وعلى شرح السعد شروح : ليسن الحمصى م ٩٦١ هـ ، ولابن يعقوب م ١١٠٨ هـ وللدسوقي م ١٢٣٠ هـ .

(٢) ٦٢ ، ١٣٧ بحوث وآراء في علوم البلاغة للأستاذ المرحوم احمد

المراعى .

(٣) ٦٣ المرجع . . وفي المكتبة الازهرية حاشية مخطوطة على أبيات

وعلى « تلخيص المفتاح للخطيب » كثير من الشروح والحواشي والتقارير مما يدل على مدى شهرته العلمية عند الباحثين . ولا يزال منهج الخطيب فى البلاغة وفى تلخيصه بالذات هو المنهج العلمى فى علوم البلاغة الى عصرنا الراهن .

وكتاب الايضاح عمل جليل فى البلاغة سواء فى ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ، أم فى استيعابه واستقصائه وتحليله ، أم فى جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، أم فى أسلوبه الأدبى وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية ، وهو أهم كتاب دراسى فى البلاغة فى العصر الحاضر .

وهذا شرح جديد للايضاح ، يتناول بالبحث والتحليل والدراسة والتعليق والشرح جميع مسائله وشرواهده ، ويشير الى مصادره ومراجعته التى ألف منها الخطيب هذا الكتاب . وهو عمل سيكون له أثره فى البلاغة العربية ، وفى خدمة الايضاح وتذليل صعوبات البحث فيه بتوفيق الله .

ويمتاز هذا الشرح بدقة البحث . وطول المراجعة ، وكثرة الشرح والتفصيل ، والالمام بكل رأى ، وتحليل كل مذهب ما عليه وما له ، وبعرض آراء جديدة فى شتى بحوث البلاغة وعلومها . . كما يمتاز بمقدمته التى هى تاريخ للبلاغة ونشأتها وأطوار التأليف فيها ، وغير ذلك مما يحتوى عليه من مميزات ، وقد وضعنا للكتاب بعض العناوين المساعدة على فهمه وإيضاحه .

الايضاح ، وهى نسخة فى مجلد بقلم فارسى فى ١٢٦ ورقة بنمرة (٤٣) ١٠٩٥ . وفيها نسخة فى مجلد بقلم معتاد بخط محمد حسن سنة ١٣٦٥ فى ١٥٠ ورقة بنمرة (٢١١٠) ٥٢٨٦ . شرح مخطوط على الايضاح ، بدار الكتب المصرية .

ترجمة الخطيب

عن الدرر الكامنة لابن حجر (١) ، والعقد المذهب

لابن الملحق ، وشذرات الذهب (٢)

هو قاضى القضاة أبو المعالى جلال الدين محمد بن القاضى
سعد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن امام الدين عمر القزوينى
الشافعى .

ولد بالموصل سنة ٦٦٦ وسكن بلاد الروم ، مع والده وأخيه
واشتغل بالعلم وتفقه على والده وولى قضاء نيكسار من بلاد الروم
ثم قدم دمشق وسمع من العز الفاروقى وطائفة وحدث وتفقه واشتغل
فى الفنون وأتقن الأصول والعربية والمعانى والبيان ، وكان فهما ذكيا
مفوها ذا ذوق سليم حسن الايراد والمحاضرة حلو العبارة فصيحاً
جميل الهيئة كبير الذقن جواداً أديباً حسن الخط ، وناب عن أخيه الأكبر
امام الدين قاضى قضاة الشام الى أن مات أخوه سنة ٦٩٩ ثم ولى
خطابة جامع دمشق فأقام بها مدة طويلة ثم طلبه الملك الناصر الى
القاهرة فى سنة ٧٢٤ وكان قدومه على البريد يوم الجمعة فاتفق أنه
اجتمع بالناصر ساعة وصوله فأمر به أن يخطب بجامع القلعة فخطب
مرتجلاً مع ما هو عليه من التعب وأثر السفر فأعجب به السلطان
وشكره وسأله عن حاله وكم عليه من الدين فذكر أن عليه ثلاثين ألف
فأمر بوفائها عنه فشافهه بقضاء دمشق فباشرها والخطابة جميعاً الى
أن ولاه قضاء الديار المصرية فى سنة ٧٢٧ فعم أمره جداً وصرف مال
الأوقاف على الفقراء والمحتاجين وحج مع السلطان فأعاقه بمال
وأحسن الى المصريين والشاميين وكان لهم ذخراً وملجأ ولم يزل على

(١) ص ٦ ج ٤ طبع الهند عام ١٣٥٠ هـ - لابن حجر م ٨٥٢ هـ .

(٢) ١٢٣ / ٦ شذرات الذهب .

حاله الى أن أعيد الى قضاء الشام بسبب أحوال أولاده وفرح به أهل الشام فأقام قليلا وتعلل وأصابه فالج فمات منه في سنة ٧٣٩ هـ عن ٧٣ سنة فأسفوا عليه كثيرا وشيعه عالم عظيم ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ومراث عديدة وكان يرغب الناس في الاشتغال بأصول الفقه وفي المعاني والبيان . وتصنيفه المسمى تلخيص المفتاح مشهور ونظمه السيوطي وسماه عقود الجمان . . وله ايضاح التلخيص أيضا . . وكان يعظم الارجاني الشاعر ويقول انه لم يكن للعجم نظيره واختصر ديوانه فسماه (السور المرجاني من شعر الارجاني) . وقال الذهبي : عظم شأنه لما ولي قضاء الديار المصرية وبلغ من العز ما لا يوصف بحيث لا ترد له شفاعاة وربما رمى على يد السلطان نفسه وكان فصيحاً حلو العبارة ، مليح الصورة ، سمحاً حلماً كثيرة التحمل وسيرته تحتمل كرايس ، وذكر اليوسفي في سيرة الملك الناصر محمد أن القاضي كان محسناً الى الناس كثير التصديق والمكارم والبر للأرباب البيوت ، قال : انه لم يوجد لأحد من القضاة منزلة عند سلطان تركي نظير نزلة جلال الدين ، وكان الناصر يحتمل ما ينقل اليه من سيرة ولده حتى كان يقول لو الى البلد : اكبس فلانا ثم يرسل اليه يقول : لا تفعل ، نبقي في حياء من والده . . . فرحمة الله تعالى عليهم وغفراته .

وترجم له السيوطي في بغية الوعاء (ص ٦٦) ، فنسبه الى أبي دلف العجلي ، وذكر ما لا يخرج عما سبق ، ثم قال : ولا أعلمه نظم شيئاً مع قوة باعه في الأدب ، ومات في منتصف جمادى الأولى عام ٧٣٩ هـ .

ويقول صاحب الدرر الكامنة : ان له ابناً اسمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني ، وهو ابن القاضي جلال الدين خطيب جامع دمشق . . وقد ترجم له (١) .

* * *

(١) ١٨٥ ج ٤ . . ويقول فيه : انه ولد عام ٧٠١ هـ وتفقه ومهر في الخطابة ومات في جمادى الآخر عام ٧٤٢ هـ .

اول كتاب الايضاح للخطيب القزويني

● تمهيد :

قال الشيخ الامام ، العالم العلامة ، خطيب الخطباء ، مفتي المسلمين ، جلال الدين : أبو عبد الله محمد ، ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن ، ابن امام الدين أبي حفص عمر ، القزويني الشافعي . • متع الله المسلمين بحياه ، وأحسن عقباه : الحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وعلى آل محمد أجمعين .

أما بعد : فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها^(١) ، ترجمته^(٢) بـ « الايضاح » وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح . وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشككة ، وفصلت معانيه المجملة وعمدت الى ما خلا عنه المختصر ، مما تضمنه « مفتاح العلوم »^(٣) ، والى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر الجرجاني^(٤) رحمه الله - فى كتابيه : دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، والى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما^(٥) ، فاستخرجت زبدة^(٦) ذلك كله ، وهذبته ورتبتها ، حتى استقر كل شئ منها فى محله ، وأضفت الى ذلك ما أدى اليه فكرى ، ولم أجده لغيرى . فجاء بحمد الله جامعا لأشتات هذا العلم . واليه أرغب فى أن يجعله نافعا لمن نظر فيه من أولى الفهم .

وهو حسبى ونعم الوكيل .

(١) علم البلاغة يشتمل على المعانى والبيان وتوابعها هو علم البديع والكلام فى السرقات الشعرية .

(٢) المراد : سميته . (٣) تأليف السكاكى م ٦٢٦ هـ .

(٤) هو شيخ البلاغة العربية وفيلسوفها . توفى عام ٤٧١ هـ . واسمه أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني : وله ترجمة فى فوات الوفيات وفى بغية الوعاة للسيوطى وعرض له ولكتابه : الأسرار والدلائل صاحب كتاب بحوث وآراء فى علوم البلاغة (ص ٥٨ ، ١٢٩ - ١٣٢) . . وقد ألفت فيه كتابا عنوانه « عبد القاهر والبلاغة العربية » .

(٥) أى غير السكاكى والجرجاني .

(٦) زبدة الشئ : جوهره وخلاصته .

مقدمة (١)

في الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة

وانحصار علم البلاغة في علمي (٢) المعاني والبيان

للناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة ، لم أجدها
فيها بلغنى منها * ما يصلح لتعريفها به ، ولا ما يشير الى الفرق بين
كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم^(٣) ، فالأولى
أن تقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين ، فنقول :

(١) الايضاح مقسم الى : مقدمة وثلاثة فنون وخاتمة ، فالمقدمة
ليست من قبيل مقاصد علم البلاغة وتوابعها ، بل هي تمهيد لذلك .
والفنون الثلاثة هي من مقاصد البلاغة الا أن موضوع كل فن منها يختلف
عن موضوع الآخر ، فموضوع الفن الأول - وهو علم المعاني - الاحتراز
عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، وموضوع الفن الثاني - علم البيان -
الاحتراز عن التعقيد المعنوي ، وموضوع الفن الثالث - البديع - ليس
الاحتراز عن شيء أصلا ، بل مجرد تحسين اللفظ وتزيينه . والخاتمة
تشمل السرقات والكلام على حسن الابتداء والتخلص وحسن الخاتمة ،
فهى من الفن الثالث أو متصلة به بصلة كبيرة .

والمقدمة هنا لبيان معنى شيئين : الأول معنى الفصاحة والبلاغة ،
والثاني انحصار علم البلاغة في علمي المعاني والبيان . وكل ذلك مما يرتبط
بالمقصود من الكتاب . . فالمقدمة هنا هي مقدمة كتاب .

وذكر معنى الفصاحة والبلاغة قبل الشروع في مسائل المعاني والبيان
والبديع ضرورى ، لتوقف معرفة معانيها على معرفة معنى البلاغة
والفصاحة .

(٢) في الأصل « في علم » .

(٣) في هذا الكلام شيء من المجازفة : فقد سبق أبو هلال ببيان الفرق
بين الفصاحة والبلاغة في الصناعتين ، فذكر أن البلاغة هي كل ما تبلغ
به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسه مع صورة مقبولة

• • • • •
= ومعرض حسن ، ثم قال : وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها ، فقال قوم : انها مأخوذة من قولهم : أفصح فلان عما في نفسه اذا أظهره وعلى هذا ترجع الفصاحة والبلاغة الى معنى واحد وان اختلف أصلهما في اللغة ، وقال بعضهم : الفصاحة تمام آلة البيان ، وعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفين ، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ والبلاغة انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى الخ (٣٩ وما بعدها صناعتين) .

وذكر ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفا للألفاظ مع المعاني ، فلا يقال في كلمة واحدة انها بليغة وان قيل انها فصيحة اذا فضلت عن مثلها ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا كالذي يقع فيه الاسهاب في غير موضعه ، ثم قال : والفصاحة على ذلك شطر البلاغة واحد جزئها ، ولها شروط اذا تكاملت في الألفاظ فلا مزيد على فصاحتها ، وتلك الشروط : منها ما يتعلق باللفظة الواحدة ، ومنها ما يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض . . وهذا كله هو خلاصة رأى القزويني اقتبس من ابن سنان (راجع ص ٥٥ وما بعدها من سر الفصاحة طبعة الرحمانية) وذكر ابن رشيق في العمدة : أن البلاغة والفصاحة راجعان الى اللفظ والمعنى جميعا الخ (ص ٨٠ طبعة هندية) .

وذكر عبد القاهر : أن البلاغة والفصاحة وما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعته والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى معناها حسن الدلالة وتتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها في صورة هي أبهى ، ولا جهة لذلك غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به واكشف عنه . وأخرى بأن يظهر مزية (ص ٣٥ من دلائل الاعجاز) ، وقال في أسرار البلاغة : أما رجوع الاستحسان (أى الوصف بالبلاغة والفصاحة) الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه فلا يعدو نمطا واحدا ، هو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا (ص ٣ أسرار البلاغة) ، فالبلاغة والفصاحة عنده مترادفان ، وان اختلف فهم كلامه فيهما وفي هل يرجعان عنده الى اللفظ أو الى المعنى . ويرى عبد القاهر أن الفصاحة تقال لكون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلامهم كثير الاستعمال على السنة =

كل واحدة منهما^(١) تقع صفة لمعنيين : أحدهما الكلام كما فى قولك قصيدة فصيحة أو بليغة ، ورسالة فصيحة أو بليغة ، والثانى المتكلم كما فى قولك شاعر فصيح أو بليغ ، وكاتب فصيح أو بليغ . والفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد فيقال : كلمة فصيحة ، ولا يقال كلمة^(٢).

= العرب الموثوق بعربيته (ص ٢٥٢ دلائل الإعجاز) وهو كلام السكاكى أيضا (ص ١٧٦ من المفتاح) .

ويرى السكاكى أن البلاغة بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، وأما الفصاحة فهى عنده قسمان : قسم يرجع الى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد المعنوى ، وقسم يرجع الى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية جارية على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيته ، لا مما أحدثه المولدون ، ولا مما أخطأت فيه العامة (وأن تكون) سليمة من التنافر (راجع ص ١٧٦ من المفتاح) . ويرى ابن الأثير أنه يحتاج فى تأليف الكلمات الى ثلاثة أشياء : اختيار الألفاظ المفردة ، ونظم كل كلمة مع اختها بحيث لا يكون هناك قلق ولا منافرة ، والفرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ... والأول والثانى عنده هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة . وتكاد فى كتابه المثل الستائر على الصناعة اللفظية (وهى عنده قسمان : قسم اللفظة المفردة ، وقسم الألفاظ المركبة) ، وعلى الصناعة المعنوية .

(١) أى من البلاغة والفصاحة .

(٢) هذا هو الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند الخطيب ، فالفصاحة عنده صفة للمفرد والكلام والمتكلم ، والبلاغة صفة للكلام والمتكلم فقط . ولا شك أن من يرى أن البلاغة والفصاحة مترادفان بحيز أن يقال كلمة بليغة كما يقال كلمة فصيحة ، وإن كان عبد القاهر - الذى يرى أن الفصاحة والبلاغة مترادفان - يجعلها وصفا للكلام لا للفظ المفرد فلا تقول عنده كلمة فصيحة ولا كلمة بليغة .

هذا والمراد بالكلام ما يقابل الكلمة فيشمل المركب الاسنادى والمركب الناقض جميعا ، فانه قد يكون بيت من القصيدة غير مشتمل على اسناد يصح السكوت عليه مع أنه متصف بالفصاحة مثل :

=



إذا ما الفانيات برزن يوما وزجن الحواجب والعيونا

فيكون المراد بالكلام تاما أو ناقصا . وورد على هذا الرأي اعتراضات منها : أن المركب الناقص إنما يصح ادخاله في مدلول الكلام لو كانوا يطلقون على مثل هذا المركب أنه كلام فصيح ولم ينقل عنهم ذلك بل المنقول وصفهم له بأنه فصيح دون كونه كلاما ، على أنه يجوز أن يكون وصفه بالفصاحة باعتبار فصاحة مفرداته .

وقيل أن المركب الناقص خارج عن المفرد وعن المركب التام فلا يتصف بالفصاحة والبلاغة بالنظر لذاته بل قد يوصف بها بالنظر لمفرداته .

والصحيح أن المراد بالكلام ما يقابل المفرد ، حقيقة (وهو اللفظة الواحدة المفردة) أو حكما (وهو المركب الناقص) ، فالمركب الناقص على هذا داخل في المفرد ، لأن المفرد يطلق على ما يقابل المركب ، وعلى ما يقابل المثني والمجموع وعلى ما يقابل الكلام ، ومقابلة المفرد ههنا بالكلام قرينة دالة على أنه أريد به ما ليس بكلام تام الافادة ، فيكون المركب الناقص داخلا فيه - أي في المفرد .

(١) إذا لم يسمع ذلك عن العرب ، وهذا هو التعليل الصحيح . وبعضهم يعلل لهذا بأن البلاغة إنما هي باعتبار المطابقة لمقتضى الحال وهي لا تتحقق في المفرد ، وورد على هذا التعليل بأن عدم تحقق المطابقة لمقتضى الحال في المفرد إنما هو في بلاغة الكلام والمتكلم ، فلم لا يجوز أن تكون هناك بلاغة أخرى غير المطابقة يصح وجودها في الكلمة ؟

الفصاحة (١)

أما فصاحة المفرد^(٢) فهي خلوصه^(٣) من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي :

(١) هي في اللغة تنبؤ التزاما عن الظهور والابانة (راجع ص ٣٥٣ من الدلائل) يقال : فصح الأعجمي وأفصح : اذا انطلق لسانه وخلصت لفته من اللكنة وجادت فلم يلحن ، وأفصح به أى صرح ، وفصح اللبن اذا أخذت رغوته وذهب لبأؤه ، قال أبو محجن الثقفي أو نضلة السلمي :

رواه ، فازدروه ، وهو خرق وينفع أهله الرجل القبيح
فلم يخشوا مصالته عليهم وتحت الرغوة اللبن الفصيح

(٢) بدأ بذكر أقسام الفصاحة وتعريف كل قسم منها على حدة دون أن يعرفها في نفسها على الإطلاق لتعذر جمع المعاني المختلفة غير المشتركة في أمر يعمها في تعريف واحد .. وقدم الكلام على الفصاحة قبل البلاغة ، لأن معرفة البلاغة سواء كانت بلاغة كلام أم متكلم موقوفة على معرفة الفصاحة في الجملة (اذ لا دخل لفصاحة المتكلم في بلاغة الكلام أو المتكلم) ، لكون الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة ، ولهذا أيضا قدم فصاحة المفرد على فصاحة الكلام والمتكلم ، أما توقف فصاحة الكلام على فصاحة المفرد فظاهر ، وأما توقف فصاحة المتكلم عليه فبواسطة أخذ فصاحة الكلام المتوقف عليها في فصاحة المفرد .. هذا وعيب المفرد اما في مادته أى حروفه وهو التنافر أو في صورته وهو المخالفة للقياس اللغوي المستنبط من استقراء اللغة (فالقياس اللغوي هو الضابط المتقرر من استعمال العرب وهو القياس الصرفي) ، واما من دلالاته على معناه وهو الغرابة .

(٣) تفسير الفصاحة بالخلوص من هذه العيوب لا يخلو عن تسامح ، لأن الفصاحة تحصل عند الخلوص ، لأنها هي كون الكلمة جارية على القوانين الصرفية متناسبة الحروف كثيرة الاستعمال ، ويلزم من ذلك الخلوص ، وبتفصيل أدق أقول : الفصاحة هي كون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب كثير الاستعمال على السنة العرب الموثوق بعربيته .

● فالتنافر (١) :

منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها ، كما روى أن أعراييا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهخع (٢) .

(١) هو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها ، والحكم في التنافر هو الذوق ، وهو قوة يدرك بها لطائف الكلام ووجوه تحسينه ، فكل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلًا متعسر النطق به فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك ، وقد صرح بذلك ابن الأثير في « المثل السائر » . وقال الزوزنى : أن قرب المخارج سبب للثقل المخل بالفصاحة ، وإن في قوله تعالى « ألم أعهد إليكم يا بني آدم » ثقلًا قريبًا من التناهي فيخل بفصاحة الكلمة ، ولكن الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يخرج عن الفصاحة ، كما لا يخرج الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير عربية عن أن يكون عربيًا ، ورد رأي الزوزنى بما يأتي :

١ - أن فصاحة الكلمات مأخوذة في تعريف فصاحة الكلام من غير تفرقة بين طويل وقصير .

٢ - وأن الزوزنى يرى أن الكلام ما ليس بكلمة ، وحينئذ فالقول بوجود كلمة غير فصيحة في كلام فصيح أكثر فسادًا من ذلك القول على تفسير غيره ، فالفساد لازم لكلام الزوزنى في المركب التام وفي المركب الناقص إذا اشتمل كل منهما على كلمة غير فصيحة ، أما على قول غير الزوزنى وهو الشارح (السعد) فالفساد في المركب التام فقط لأنه يجعل المركب الناقص داخلًا في الكلمة .

٣ - على أن القياس على الكلام العربي ظاهر الفساد ، لأن القرآن عربي باعتبار كله أو جله ، وأيضًا فلم يشترط في عربية الكلام عربية الكلمات .

٤ - ولو سلم عدم خروج السورة عن الفصاحة مع اشتغالها على كلمة غير فصيحة ، فإن مجرد اشتغال القرآن على كلام غير فصيح بل على كلمة فصيحة مما يقود إلى نسبة الجهل أو العجز لله .

(٢) هي اسم شجرة من شجر الصحراء ، وتنطق الكلمة بصور كثيرة ، وقيل إنها كلمة معاية لا أصل لها في اللغة .

ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزر فى قول امرىء القيس :
غدائره مستشزرات الى العلا تفضل العقاص فى مثنى ومرسل^(١)

● والفراصة :

أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج فى معرفته

(١) من معلقة امرىء القيس امام الشعراء الجاهلين التى مطلعها :
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لوقيل هذا البيت :

وفرع يزين المتن اسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتشكل

الفرع : الشعر التام . المتن : ظهر المرأة . أثيث : كثير . قنو النخلة :
عنقودها . المتشكل : المتراكم . الغدائر : الذوائب ، جمع غديرة . والضمير
فيها عائذ الى الفرع فى البيت الأول . مستشزرات أى مرتفعات ان كان
بكسر الزاى على لفظ اسم الفاعل ، أو مرفوعات ان روى بالفتح على
لفظ اسم المفعول ، استشزره أى رفعه متعديا ، واستشزر أى ارتفع
لازما . تفضل : تغيب وتختفى . العقاص : جمع عقيصة وهى الخصلة
المجموعة من الشعر . المثنى : المفعول . المرسل : خلاف المثنى .

والمعنى : أن ذوائبه مشدودة على الرأس وأن شعره مقسم الى
عقاص ومثنى ومرسل والأول يغيب فى الأخيرين . والمراد وصف الشعر
بالكثافة والكثرة والطول . . والشاهد هنا قوله مستشزرات فهو لفظ
متنافر ثقيل على اللسان ، ولكنه أقل ثقلا من « الهعخع » . . وقال
الخلخالى : أن سبب الثقل فى مستشزرات راجع الى توسط الشين التى
هى من الحروف المهموسة (وهى عشرة يجمعها قولهم : سكت فحشه
شخص . وما عداها فحروف مجهورة) الرخوة (وهى ما عدا الحروف
الشديدة التى يجمعها قولهم : أجد قط بكت ، وما عدا الحروف
المتوسطة التى يجمعها قولهم : لن عمر) ، بين التاء التى هى من المهموسة
الشديدة وبين الزاى التى من المجهورة الرخوة ، ولو قال : مستشرف لزال
الثقل . ورد رأى الخلخانى بأن الراء المهملة أيضا هى من الحروف
المجهورة . . . ومن الألفاظ المتنافرة : اطلخم بمعنى اشتد ، ومثعنجر :
للسائل من الماء أو الدمع .

الى أن ينقر^(١) عنها في كتب اللغة المبسوطة ، كما روى عن عيسى
ابن عمر^(٢) النحوى أنه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال :
ما لكم تكأ كأتكم على تكأ كؤؤكم على ذى جنة افرثقوا عني ، أى اجتمعتم
تنحوا .

أو يخرج لها وجه بعيد^(٣) كما في قول العجاج^(٤) :

ومقلة وحاجبا مزججا وفاحما ومرسنا مسرجا

(١) ينقر : أى ينقش . والكلمة الوحشية هى التى لا تكون مأنوسة
الاستعمال عند العرب الخلف من سكان البادية ، لا بالنسبة للمولدين .

(٢) عالم جليل من ثقيف ومن أئمة النحو واللغة ومن المتقهرين فى
كلامهم توفى عام ١٥٠ هـ ، وتروى هذه القصة عن أبى علقمة النحوى
حين هاجت به مرة ببعض طرق البصرة فوثب عليه قوم يعضون إبهامه
ويؤذنون فى أذنه ، وكان أبو علقمة نحويا مغربا فى ألفاظه .
وقوله : ذى جنة ، أى صاحب جنون .

(٣) سبب هذا التخريج هو عدم ظهور معنى الكلمة ، وسبب
التفتيش والتنقير عن الكلمة فى المعاجم هو وحشيتها .

وما يحتاج الى تخريج يعده بعض البلاغيين من التعقيد ، والبعض
يجعله خطأ ، وكلا الوجهين غير صحيح ، لأن الوارد من هذا الباب إنما
ورد من عربى موثوق بعربيته فلا يعد خطأ ، كما أن هنا فرقا بين هذا الباب
وبين التعقيد ، لأن التعقيد فيه خطأ ناشئ عن ظهور الدلالة
على المراد ، وهنا لا خطأ ولا خفاء فى الدلالة فلا تعقيد .

(٤) شاعر راجز مشهور أدرك الدولة الأموية . والبيت من أرجوزة
العجاج « ما هاج أحزانا وشجوا قد شجا » . وفى أسرار البلاغة ص ٤٨
ذكره عبد القاهر مع الاستعارات القبيحة (فى قوله : ومرسنا) . . .
المقلة : العين . مزججا : مدققا مطولا . فاحما : أى شعرا أسود كالفتح .
المرسن : الأنف . . . والشاهد فى البيت فى قوله مزججا فإنه غير ظاهر
المعنى ، إذ أن العلماء قد اختلفوا فى معناه . والحاصل أن مسرجا اسم
مفعول مشتق فلا بد له من أصل يرجع اليه ففيل هو :

=

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » ، حتى اختلف فى تخريجه :
ف قيل هو من قولهم للسيوف : سريجية ، أى منسوبة الى قين^(١)
يقال له « سريج » ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجي ،
وقيل : من السراج ، يريد أنه فى البريق كالسراج^(٢) . وهذا يقرب من
قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه^(٣) .

= ١ - فعل (بالتشديد) للنسبة مثل كرمته أى نسبته للكرم .
ولما لم يوجد التريج الذى حق النسبة أن تكون اليه جعلنا مسرجا
منسوبا للسراج أو للسريجي نسبة تشبيهية أى هو منسوب لهما من حيث
أنه شبيه بهما . ووجه بعد هذا التخرج أن مجرد النسبة لا يدل
على التشبيه .

٢ - وقيل أنه من فعل بتشديد العين بمعنى صيرورة فاعله كأصله
مثل قوس الرجل أى صار كالقوس ، فمسرج أى صائر كالسراج
أو كالسريجي ... وهذا مردود بأن سرج على هذا لازم فلا يصاغ منه
اسم مفعول .

٣ - وقيل أنه من فعل بمعنى صيرورة فاعله أصله أو صيرورته
ذا أصله مثل عجزت المرأة أى صارت عجوزا وورق الشجر صار
ذا ورق ، فمسرج أى صار سراجا أو سريجا أى مثل أحدهما أو صار
ذا سراج وهذا مردود بما يرد به الوجه السابق .

٤ - وقيل هو اسم مفعول من سرج الله وجهه أى نوره وبهجه ،
فمعنى مسرج : منور ، فليس فيه نسبة تشبيهية ، وهذا وإن لم يكن غريبا
من حيث عدم احتياجه لتخريج بعيد ، لكنه بعيد من حيث أنه يحتاج الى
تفتيش عليه فى كتب اللغة المبسوطة .

(١) القين : الحداد .

(٢) هذان التخريجان هما حاصل الوجه الاول الذى سبق ذكره
والذى سبق بيان ما عليه من رد .

(٣) أى أن الوجه المذكور قريب من هذا الوجه الثانى فى أن كلا منهما
غريب والكلمة عليهما غير ظاهرة المعنى ، وهذا التخريج الثانى هو الوجه
الرابع الذى سبق ذكره ، ورد بأنه يحتاج الى تفتيش على معناه فهو
غريب . وقال الامام الرزوقى : أن مسرجا لفظ مستحدث من السراج أى

● ومخالفة القياس (١) :

كما فى قول الشاعر (٢) :

الحمد لله العلى الأجل (أنت ملك الناس ربا فاقبل)

فان القياس الأجل بالادغام .

وقيل هى : (٣) خلوصه مما ذكر (٤) ، ومن الكراهة فى السمع (٥)

أنه لفظ أحدثه المولدون وأخذوه من السراج واستعملوه بمعنى حسن ولم يكن ذلك اللفظ واقعا فى لغة العرب أصلا ، ويرد عليه أن العجاج قبل عصر التوليد والاستحداث .

ووجه القرب بين الوجهين المذكورين أن مسرجا عليهما مشتق من سرج ، لكن على الوجه الأول مشتق منه للنسبة التشبيهية ، وعلى الوجه الثانى مشتق منه اشتقاقا لغويا لا على آفاده النسبة التشبيهية .

(١) هو أن تكون الكلمة على خلاف قانون مفردات الألفاظ الموضوعية ، أعنى على خلاف ما ثبت عن الواضع ، فالموافقة للقياس أن تكون الكلمة على وفق ما ثبت عن الواضع سواء وافقت القانون التصريفى أم خالفته ولكن ثبتت عن الواضع كذلك ، والمخالفة أن تكون الكلمة على خلاف ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القانون الصرفى أيضا أم لا ، فنحو آل وماء وأبى وأبى وعور وعور فصيح . لأنه ثبت عن الواضع كذلك .

(٢) هو أبو النجم الراجز المشهور . وهذا الشاهد فى الكتاب لسيبويه صحيفة ٣٠٢ من الجزء الثانى وروايته فيه هكذا : الحمد لله الوهوب المجزل .

ومثل البيت قول الشاعر :

مهلا أعاذل قد جريت من خلقى أنى أجود لأقوام وإن ضننوا (٣) أى فصاحة المفرد .

(٤) أى من التنافر والغرابة ومخالفة القياس .

(٥) وهذا القول لابن الأثير فى « المثل السائر » . قال : الألفاظ داخلية فى حيز الأصوات ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما

بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة،
فإن اللفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه
ومنها ما تكرهه سماعه ، كلفظ الجرشي في قول أبي الطيب :

(مبارك الاسم أغر اللقب) كريم الجرشي شريف النسب (١)

أي كريم النفس ، وفيه (٢) نظر .

ثم علامة كون الكلمة فصيحة ، أن يكون استعمال العرب الموثوق
بعريبتهم لها كثيراً ، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها (٣) .

استكرهه فهو القبيح (راجع ص ٥٨ المثل السائر) ، وهو رأى أشار إليه
ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة ص ٦١ .

(١) من قصيدة يمدح بها المتنبي سيف الدولة . . الأغر من الخيل :
الأبيض الجبهة ، ثم استعير لكل واضح . الجرشي : النفس . والمعنى
أن اسم سيف الدولة على وهو اسم جميل ميمون ولقبه لقب واضح
مشهور ، وهو كريم النفس عظيم الحسب ، شريف النسب . . . والشاهد
الجرشي فإنها لفظ غير فصيح ، لكراهته في السمع كما يقول هذا القائل ،
أو لغرابته على رأى من عداه من البلاغيين والبيت في ص ٦٢ من سر
الفصاحة .

(٢) أي في هذا القول وهو أن تكون كراهة الكلمة في السمع سببا
لعدم فصاحتها . . . ووجه النظر كما قالوا هو ما يأتي :
١ - أن الكراهة في السمع إنما هي من جهة الغرابة المفسرة
بالوحشية مثل تكأثم ، وافرئعوا ، ونحو ذلك .

٢ - وأن الكراهة في السمع وعدمها يرجعان إلى عدم طيب النغم
أو إلى طيبه لا إلى نفس اللفظ . ويمكن رد هذا الوجه الثاني بالقطع
باستكراه الجرشي دون « النفس » مع قطع النظر عن النغم .
(٣) هذا منقول عن السكاكي (ص ١٧٦ من المفتاح) . خلاصته :

أن فصاحة الكلمة تعرف بأحد أمرين :
١ - أن تكون هذه الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب الموثوق
بعريبتهم : إذا لم يكن لها مرادف .

● وأما فصاحة الكلام :

فهى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، مع فصاحتها .

● فالضعف (١) :

كما فى قولنا ضرب غلامه زيدا ، فان رجوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور ، لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متأخر لفظا ورتبة .

٢ - أو أن تكون هذه الكلمة أكثر استعمالا عندهم من الكلمات الأخرى المرادفة لها المشتركة معها فى المعنى وهذا فيما اذا كان للكلمة مرادف .

فعلامة فصاحة الكلمة التى ليس لها مرادف كثرة استعمالها ، والتى لها مرادف أن تكون استعمالا من مرادفها .

(١) هو أن يكون تأليف الكلام على خلاف القانون النحوى المشهور بين الجمهور كالإضمار قبل الذكر لفظا ومعنى وحكما ، نحو ضرب غلامه زيدا ، فلو تقدم المرجع على الضمير لفظا (بأن يتقدم عليه لفظا ورتبة مثل ضرب زيد غلامه أو لفظا فقط مثل ضرب زيدا غلامه) ، أو تقدم معنى بأن يتقدم المرجع على الضمير لفظا لكن هناك ما يدل على تقدمه معنى ، كالفعل المتقدم الدال على المرجع تضمنا نحو اعدلوا هو أقرب للتقوى ، وكسباق الكلام المستلزم له استلزاما قريبا نحو ولأبويه أى المورث أو بعيدا نحو توارت بالحجاب أى الشمس ، وكون المرجع فاعلا المقتضى لتقدمه على المفعول نحو خاف ربه عمر ، أو مبتدأ المقتضى لتقدمه على الخبر مثل فى داره زيد ، أو مفعولا أول فى باب أعطى مثل أعطى درهمه زيدا ، أو تقدم حكما بأن يتأخر المرجع عن الضمير لفظا وليس هناك ما يقتضى ذكره قبله إلا حكم الواضع بأن المرجع يجب تقدمه ، لكن خولف حكم الواضع لأغراض تأتى فى بحث وضع المضمير موضع المظهر . فالمرجع المتأخر لغرض متقدم حكما مثل : ربه رجلا ، ونعم رجلا زيد ، وقل هو الله أحد . وفى باب التنازع مثل ضربنى وضربته محمد وباب البدل والمبتدأ المفسر بالخبر . نعم لو تقدم المرجع فى كل ذلك جاز ولا يكون هناك ضعف ولا يضر ذلك بفصاحة الكلام . . وقد أشار السكاكى الى ضعف التأليف فى المفتاح ص ٩٤ .

وقيل يجوز^(١) ، كقول الشاعر^(٢) :

جزى ربه عنه عدى بن حاتم
جزاء الكلاب العاويات ، وقد فعل^(٣)

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى ، أى (جزى) رب الجزاء^(٤)
كما فى قوله تعالى : اعدلوا هو أقرب للتقوى ، أى العدل .

(١) أى يجوز رجوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا .

(٢) هو النابغة الذبياني الشاعر الجاهلى المشهور ، كما فى
الخصائص لابن جنى .

(٣) يدعو الشاعر على عدى بأن يجزيه شرا كجزاء الكلاب العاويات
التي تضرب وترمى بالحجارة ، ثم يقول الشاعر . بل قد حصل هذا الجزاء
فعلا وأصبح حقيقة لا دعاء . والشاهد فى البيت قوله : « جزى ربه عنى
عدى بن حاتم » ، فقد رجع الضمير الى المفعول المتأخر فى اللفظ كما هو
متأخر فى الرتبة .

ومثل هذا البيت قول سليط بن سعد :
جزى بنوه أبا الفيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار
ومثله :

ألا ليت شعرى هل يلومن قومه زهيرا على ما جرى من كل جانب
وفى معنى البيت قول النابغة :

جزى الله عبسا عبس آل بغيض جزاء الكلاب العاويات وقد فعل
ومن ضعف التأليف :

فلو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر (مطعما)
(٤) فى هذا تكلف وحمل للأسلوب على مالا يفيد وان كان أخف من
حمل البيت على ضعف التأليف .

● والتنافس (١) :

منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على لسان وعسر
النطق بها متتابعة ، كما في البيت الذي أنشده الجاحظ (٢) :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر (٣)

ومنه ما هو دون ذلك كما في قول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى
(واذا ما لمته لمته وحدى (٤))

(١) هو أن تكون الكلمات ثقيلة على اللسان وان كان كل منها فصيحة .

(٢) البيت في دلائل الاعجاز ص ٤٦ مع تعليق لعبد القاهر عليه ..
وهو لا يعرف قائله .

(٣) حرب : اسم رجل . الفقر : الخالي من الماء والكأ .. ويقول
القزويني الرحالة في « عجائب المخلوقات : ان هاتفا من الجن صاح بحرب
ابن أمية فمات فرثاه ذلك الجنى بهذا البيت .. قوله « قفر » بالرفع
نعت مقطوع . والبيت خير مراد منه التأسف والتخزن .

(٤) الواو في « والورى » للحال ، وهو مبتدأ ، وخبره « معى » ..
يقول أبو تمام في ممدوحه : هو كريم في خلقه ومعروفه ، اذا ما مدحته
كان الورى كلهم معى يمدحون ويشيدون أو يسمعون ويؤيدون ، واذا
ما أردت لومه على تأخير معروف أو على شبه ذلك وقفت وحدى
لا يشاركنى في ذلك أحد ولا يؤيدنى فيه انسان .. والبيت في ص ٤٦
من دلائل الاعجاز ، وذكر صاحب اسماعيل بن عباد الكاتب انه أنشد
القصيدة التي منها هذا البيت بحضرة الاستاذ ابن العميد الوزير ، فلما
بلغ هذا البيت قال له الاستاذ : هل تعرف فيه شيئا من الهجنة ؟ قال :
نعم مقابلة المدح باللوم وانما يقابل بالذم أو الهجاء ، فقال الاستاذ :
هذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من
حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال نافر كل النفر ، فأشاد
الصاحب بدوقه ونقده .

فإن في قوله « أمدحه (أمدحه) » ثقلاً لما بين الحاء والهاء من التنافر (١) .

● والتعقيد (٢) :

أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به وله (٣) سببان : أحدهما ما يرجع الى اللفظ وهو أن يختل نظم (٤) الكلام . ولا يدرى

(١) وهناك فرق آخر بين البيت والبيت الذي قبله ، وهو أن منشأ الثقل في الأول نفس اجتماع الكلمات وفي البيت الثاني اجتماع حروف منها . ومجموع الحروف التي في الكلمتين والتي حصل الثقل باجتماعها أربعة وهي : الحاءان والهاءان ، فما ذكر من مجموع الحروف التي حصل الثقل باجتماعها حاصل مع تكرير أمدحه ، ولو قال وفي الثاني تكرير حروف منها لكان أوضح وأحضر . أما ثقل مجرد الجمع بين الحاء والهاء فلا يخل بالفصاحة لوقوعه في التنزيل كما في قوله « فسيحه » .

(٢) أي كون الكلام معقداً فهو مصدر المبني للمفعول لا للفاعل ، والمراد بأنه مصدر المبني الحاصل بالمصدر أي الهيئة المترتبة عليه . وتجد الكلام في التعقيد في (أسرار البلاغة ص ١١٨ ، وفي دلائل الإعجاز ص ٦٥ ، وفي المفتاح ص ١٧٦) .

(٣) أي عدم ظهور المعنى المراد منه للمتكلم ، أما الغرابة فهي كون اللفظ غير ظاهر الدلالة على المعنى الموضوع له ، وأما اللفظ والمعنى : فقليل هما غير فصيحين مطلقاً ولا يعدان من البديع لعدم ظهور الدلالة ، وقيل إن الدلالة فيهما أن كانت ظاهرة للفظن فهما فصيحان ويعدان من البديع والا فلا . واللفظ والمعنى بمعنى وهو قول يدل ظاهره على خلاف المراد .

(٤) النظم هو تأليف الكلمات مترتبة المعاني متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل لا تواليها في النطاق وضم بعضها الى بعض كيفما اتفق ، بخلاف نظم الحروف فإنه تواليها في النطق من غير اعتبار معنى يقتضيه (راجع دلائل الإعجاز ص ٤٠ و ٤٥) .

السامع كيف يتوصل الى معناه^(١) ، كقول الفرزدق^(٢) :

وما مثله فى الناس الا مملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

الا مملك أبو أمه أبوه ، فانه مدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي^(٣) خال هشام بن عبد الملك بن مروان ، فقال وما مثله - يعنى ابراهيم الممدوح - فى الناس ، حتى يقاربه - أى أحد يشبهه فى الفضائل - الا مملكا يعنى هشاما ، أبو أمه - أى أبو أم هشام - أبوه - أى أبو الممدوح - فالضمير فى أمه للمملك ، وفى أبوه للممدوح ، ففصل بين أبو أمه - وهو مبتدأ - وأبوه - وهو خبره - بحى - وهو أجنبى - ، وكذا فصل بين حتى ويقاربه وهو نعت حتى - بأبوه - وهو أجنبى ، وقدم المستثنى على المستثنى منه^(٤) . فهو كما تراه فى غاية التعقيد .

(١) بأن لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى ، بسبب تقديم أو تأخير أو حذف أو اضممار أو غير ذلك ، مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وان كان ذلك فى الكلام جاريا على قواعد النحو . . فان سبب التعقيد يجوز أن يكون اجتماع أمور كل منها شائع الاستعمال فى كلام العرب ، ويجوز أن يكون التعقيد حاصلًا ببعض منها لكنه مع اعتبار الجميع يكون أشد وأقوى ، فذكر ضعف التأليف لا يغنى عن ذكر التعقيد اللفظى كما توهمه البعض .
(٢) هو الشاعر الأموى المشهور قرين جرير والأخطل توفى عام ١١٠ هـ . والبيت فى ١٥ و ٥٦ أسرار البلاغة ، ٧٦ مفتاح ، ٦٥ دلائل الاعجاز ، ١٥٤ و ١٩٧ الصناعتين ، قال ابن عبد ربه فى العقد : معناه ، ما مثل هذا الممدوح فى الناس الا الخليفة الذى هو خاله ، فقال أبو أمه حتى أبوه يقاربه ، فبعد المعنى القريب ووعر الطريق السهل ، وليس المعنى بتوعر اللفظ وقبح البنية حتى ما يكاد يفهم (١٣ / ٤ العقد) .
(٣) من الأمراء الأشراف السادة الفرسان توفى عام ١٢٥ هـ وهشام أحد الخلفاء الأمويين المشهورين .

(٤) ما نافية ، « مثله » اسمها ، « فى الناس » خبرها . ممكا : مستثنى مقدم منصوب على الاستثناء . أبو أمه : مبتدأ ومضاف اليه ، وحتى بدل من مثله ، ففيه أيضا فصل بين البديل والمبدل منه ، أبوه خبر

فالكلام الخالي من التعقيد اللفظي ما سلم نظمته من الخلل ، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضممار أو غير ذلك ، الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة ، لفظية أو معنوية ، كما سيأتي تفصيل ذلك كله وأمثله اللائقة به (١) .

والثاني ما يرجع الى المعنى ، وهو ألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول الى المعنى الثاني — الذى هو لازمه والمراد به — ظاهرا (٢) كقول العباس بن الأحنف :

المبتدا ، يقاربه صفة لحي . ويصح أن يكون « مملكا » مستثنى من الضمير المستثنى في الجار والمجرور الواقع خبر ما ، وأبو أمه مبتدا خبره ، وأبوه خبر ، والجملة صفة لمملكا ، وكذلك جملة يقاربه وعلى هذا الوجه فلا تعقيد في البيت ، ولكن في حمله عليه تكليف شديد .

(١) قال الخليلي: ذكر ضعف التأليف يفنى عن ذكر التعقيد اللفظي . واجب بأنه يجوز أن يحصل التعقيد باجتماع عدة أمور موجبة لصعوبة فهم المراد وان كان كل واحد منها جاريا على القانون النحوي مثل الا عمرا الناس ضارب زيد . وينفرد ضعف التأليف في مثل جاءني أحمد ، ويجتمع الضعف والتعقيد في بيت الفرزدق ، فبينما عموم وخصوص من وجه ... هذا ومن التعقيد اللفظي قول أبي تمام :

ثانيه في كبس السماء ، ولم يكن كائنين ثان اذ هما في الفار

وقول المتنبي :

انى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان انت محمد وتركيب البيت الصحيح : أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وانت الثقلان ، وكذلك قول الفرزدق :

الى ملك ما أمه من (محارب) أبوه ولا كانت (كليب) تصاهره أى الى ملك أبوه ما أمه من محارب ولا كانت تصاهره كليب .

(٢) أى الى أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد لخلل واقع في انتقال الذهن — أى بسبب بطء نفس السامع في انتقالها — من المعنى الأول الذى هو المعنى الأصلى الحقيقى للكلام الى المعنى الثانى الملابس له وهو المعنى الكنائى أو المجازى . والحاصل أن من شروط فصاحة الكلام أن يسلم من التعقيد المعنوى بأن لا يكون ما فيه من كناية أو مجاز بعيدا عن

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا

وتسكب عيناى الدموع لتجمدا^(١)

كنى بسكب الدموع عما يوجب الفراق من الحزن ، وأصاب ، لأن
من شأن البكاء أن يكون كناية عنه ، كقولهم : أبكاني وأضحكنى
أى ساءنى وسرنى ، وكما قال الحماسى^(٢) :

الفهم والوضوح : فان من شروط فصاحة الكناية والمجاز قرب فهم المعنى
الثانى من أصله الحقيقى ، والا كانا غير فصيحين بحيث يفتقر فى فهمه
الى وسائط مع خفاء القرينة ، فالمدار فى صعوبة الفهم على خفاء القرينة
كثرت الوسائط أو لا ، وخفاء القرائن أو عدم خفائها بحسن جريان الكلام
على أسلوب البلقاء أو عدم جريانه ، وسبب الخفاء ايراد اللوازم البعيدة
المفتقرة الى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المقصود بسبب
عدم جريان الكلام على أسلوب البلقاء ، فلو كانت القرينة ظاهرة فلا خلل
تعددت الوسائط أم لا . هذا وتجسد الكلام على التعقيد المعنوى فى
دلائل الاعجاز صحيفة ٢٠٧ .

(١) العباس شاعر عباسى ، غزل مجيد . والبيت فى ٢٠٨ دلائل
الاعجاز ، وتعليق الخطيب على البيت مأخوذ من عبد القاهر فى دلائل
الاعجاز . وتسكب فى البيت بالرفع وهو الصحيح ، ونصبه على العطف
على « بعد » أو على « لتقربوا » وهم . ومعنى البيت : انى اليوم اطيب
نفسا بالفراق وأبعد ، وأوطنها على مقاساة الأحزان والأشواق ، واتجرع
غصصها وأتحمل لأجلها حزنا يفيض الدموع من عيني ، لآتسبب بذلك
الى وصل يدوم فان الصبر مفتاح الفرج ولكل بداية نهاية ومع كل عسر
يسرا ، كما يشير اليه عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ... وعلى هذا فالسين
فى « سأطلب » لمجرد التأكيد على ما ذكره صاحب الكشاف فى قوله تعالى
« سنكتب ما قالوا » .

(٢) هو حطان بن المعلى ، شاعر اسلامى مشهور . والبيت من
السريع ، وهو فى الحماسة ، وتجده أيضا فى دلائل الاعجاز (ص ٢٠٨)
ومثل البيت قول مسلم :

أبكاني الدهر مما كان أضحكنى والدهر يخلط احلاء بامرار

وقول الخنساء :

الا يا صخر ان أبكىت عيني لقد أضحكتنى زمنا طويلا

أبكاني الدهر ويا ربما أضحكني الدهر بما يرضى
ثم طرد ذلك في تقيضه ، فأراد أن يكنى عما يوجبه دوام التلاقى
من السرور بالجمود ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من
غير اعتبار شيء آخر ، وأخطأ^(١) :

لأن الجمود خلو العين من البكاء في حال ارادة البكاء منها ،
فلا يكون كناية عن المسرة ، وإنما يكون كناية عن البخل كما قال
الشاعر^(٢) :

ألا ان عينا لم تجد يوم (واسط) عليك بجارى دمعها لجمود
ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء في حال المسرة ايجاز
أن يدعى به للرجل ، فيقال : لا زالت عينك جامدة ، كما يقال : لا أبكى
الله عينك . وذلك مما لا يشك في بطلانه .

وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة « جماد » لا مطر فيها ، وناقاة
جماد : لا لبن لها ، فكما لا تجعل السنة والناقاة جمادا إلا على معنى
أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقاة لا تسخو بالدر ، لا تجعل العين جمودا

(١) لعدم فهم ذلك اللازم بسرعة من جمود العين ففيه مخالفة لما ورد
استعمال البلغاء لأن تعارف البلغاء على خلافه ، فهو مخطيء في نظر البلغاء
وان صح أن يكون لكلامه وجه من التأويل بحمل كلامه على ما يصححه
بأن نقول : استعمل جمود العين الذي هو يبسها في حال خلوها من
الدموع مطلقا مجازا مرسلا من باب استعمال المقيد في المطلق ، ثم كنى به
عن دوام السرور لكونه لازما لذلك عادة ، وهذا وان كان معنى صحيحا
إلا أن فيه بعدا وتعقيدا .

(٢) هو أبو عطاء يرثى ابن هبيرة وقد قتل في معركة يوم « واسط »
والبيت في ص ٢٠٨ من دلائل الإعجاز وهو من أبيات عزائها المرتضى لمعن
ابن زائدة .

إلا وهناك ما يقتضى ارادة البكاء منها ، وما يجعلها اذا بكت محسنة
موصوفة بأنها قد جادت ، واذا لم تبك مسبيئة موصوفة بأنها قد
ضينت .

فالكلام الخالى عن التعقيد المعنوى ما كان الاقترال من معناه
الأول الى معناه الثانى - الذى هو المراد به - ظاهرا ، حتى يخيّل الى
السامع أنه فهمه من حلق اللفظ ، كما سيأتى من الأمثلة المختارة
للاستعارة والكناية

وقيل فصاحة الكلام هى خلوصه مما ذكر (١) ومن كثرة التكرار (٢)
وتتابع الاضافات . كما فى قول أبى الطيب (المتنبى) :

(وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة)

سبوح لها منها عليها شواهد (٣)

وكما فى قول ابن بابك (٤) :

(١) أى من الضعف والتنافر والتعقيد .

(٢) أى للفظ الواحد اسما كان أو فعلا أو حرفا .

(٣) سبوح : أى فرس حسن الجرى لا تتعب راكبها كأنها تجرى
فى الماء « لها » صفة لسبوح ، و « منها » حال من شواهد ، و « عليها »
متعلق بشواهد ، و « شواهد » فاعل الظرف - أعنى « لها » - ،
يعنى أن لها من نفسها علامات دالة على نجابتها وأصالتها . والغمرة :
هى الشدة . قيل التكرار الشئ مرة بعد أخرى ولا يخفى أنه لا تحصل
كثرته بذكره ثالثا بل لا تحصل الكثرة الا بذكره ست مرات فالتكرار ذكر
الشئ مرتين وتعدده بالتربيع وكثرته بالتسديس ، واجيب بأن المراد بالكثرة
ما يقابل الوحدة ولا يخفى حصولها بذكره ثالثا . والشاهد فى البيت كثرة
التكرار فيه .

(٤) من شعراء العصر العباسى . وله ترجمة فى اليتيمة . مدح عضد
الدولة وألصاحب ، وتوفى عام ٤١٠ هـ .

حمامة جرجا حومة الجندل اسجعى

(فأنت بمرأى من سعاد ومسمع) (١)

وفيه نظر (٢) ، لأن ذلك (٣) أن أفضى باللفظ الى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم (٤) ، والا فلا يخل بالفصاحة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم • يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » (٥) .

(١) الشاهد في البيت كثرة الاضافات المتتابعة ، ففيه اضافة حمامة الى جرجى وجرجى الى حومة ، وحومة الى الجندل .

والجرجى : تأنيث الأجرع قصرها للضرورة ، وهى أرض ذات رمل لا تثبت شيئا . والحومة : معظم الشيء . الجندل : أرض ذات حجارة . في هذا المكان غنى واصدحى فأنت بحيث تراك سعاد المحبوبة وتسمع السجع : هدير الحمام ونحوه . والمعنى أيتها الحمامة التى تعيش أو تحلق صوتك ، يقال : فلان بمرأى منى ومسمع ، أى بحيث أراه وأسمع قوله كما في الصحاح ، ومن الخطأ أن يقال فأنت بموضع ترين منه سعاد وتسمعين كلامها .

ومثل البيت في تتابع الاضافات قول أبى العتاهية :

سبحان ذى الملكوت أية ليلة مخضت بوجه صباح يوم الموقف
وقول مسلم :

ثاروا الى صفق الشمول فأشعلوا نيران حرب كؤوسها اشعالا

(٢) أى فى القول السابق الذى يجعل خلو الكلام من كثرة التكرار وتتابع الاضافات شرطا لفصاحته .

(٣) أى كثرة التكرار وتتابع الاضافات .

(٤) أى بما سبق ذكره من التنافر .

(٥) يسمى هذا اللون فى البديع « الاطراد » . ووردت أيضا مثل التكرار وتتابع الاضافات غير معيبة ، قال تعالى : ونفس وما سواها فآلهمها فجورها وتقواها . وقال : مثل داب قوم نوح . وقال : ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

قال الشيخ عبد القاهر^(١) : قال الصاحب^(٢) . اياك واضافات المتداخلة ، فانها لا تحسن ، وذكر أنها تستعمل في الهجاء ، كقول القائل :

يا على بن حمزة بن عماره أنت والله ثلجة في خياره

ثم قال الشيخ^(٣) : ولا شك في ثقل ذلك في الأكثر ، لكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف . ومما حسن فيه قول ابن المعتز^(٤) أيضا : وظلت تدير الراح أيدي جآذر عتاق دفانير الوجوه ، ملامح^(٥)

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدي^(٦) يصف غلاما له :

ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفي القريض وزان دينار المعاني الدقاق ، منتقد^(٧)

(١) راجع هذا القول في ص ٨٢ من دلائل الإعجاز .

(٢) هو الصاحب بن عباد الوزير م ٣٨٥ هـ ، والبيت الآتي يتهكم فيه بعلي بن حمزة البصري اللغوي المتوفى عام ٣٩٠ هـ .
(٣) أي عبد القاهر أيضا .

(٤) هو الخليفة العباسي الشاعر الأديب العالم الناقد ، توفى عام ٢٩٦ هـ .

(٥) الراح : الخمر . جآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . عتاق جمع عتيق أي كريم .

(٦) سعيد بن هشام ، من شعراء اليتيمة ، رقيق الشعر مطبوع توفى عام ٣٧٠ هـ .

(٧) الصيرفي : المحتال في الأمور . المنتقد : الخبير بالدراهم الجيدة والزيوف ثم أطلق فصار بمعنى الخبير بالشيء مطلقا . والمعنى هو مثلى في معرفة الشعر والبصر به ونظمه بل هو لديه القدرة على أن يكون أبرع مما هو فيه وهو دقيق البصر بالشعر ناقد له يزن المعاني الدقيقة بموازين النقد التي لا تسرف في الحكم والتقدير .

والشاهد في البيت كثرة الاضافات مع حسنها ، وهو الشاهد في البيت السابق .

● شواهد للاخلال بالفصاحة :

قال تأبط شراً :

يظل بمومة ويمسى بغيرها
وقال حسان يرثى :

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا
وقال المتنبي :

من الناس أبقى مجده الدهر مطعما
كيف ترثى التي ترى كل جفن

راءها غير جفنها غير راق
وقال الفرزدق :

واذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم
وقال أبو تمام :

قد قلت لما اطلعخ الأمر وانبعث
لى حرمة بك أضحي حق نازلها
وللمتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم
وقال :

أقل، انل، اقطع، احمل سل، أعد
وقال الشاعر :

كان قفراً رسومها قلمها
وللمتنبي :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله
فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا

ويجهل علمى انه بى جاهل
فلاقل عيس كلهن قلاقل =

● وأما فصاحة التكلم :

فهي ملكة^(١) يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح •
فالملكة قسم من مقولة الكيف التي هي هيئة قارة لا تقتضى قسمة
ولا نسبة ، وهو مختص بذوات الأتفس راسخ فى موضوعه •

وقيل : ملكة • ولم يقل صفة ، ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات
الراسخة ، حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحاً
الا إذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ
فصيح راسخة فيه •

وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ، ليشمل حالتى النطق وعدمه :
وقيل : بلفظ فصيح ، ليعم المفرد والمركب^(٢) •

لـ

وقال الحريري :

فأزور من كان له زائر وعاف عافى العرف عرفانه

ولبشر بن عوانة أو للبديع فى وصف الأسد :

فخر مخرجاً بدم كائى هدمت به بناء مشمخرا

المتنبى :

فلا يبرم الأمر الذى هو حال ولا يحلل الأمر الذى هو مبرم

المتنبى :

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

أمرؤ القيس فى وصف الفرس :

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

أبو تمام :

جذبت نداء غدوة السبت جذبة فخر صريعا بين أيدي القصائد

(١) الملكة : كيفية راسخة فى النفس •

(٢) أما المركب فظاهر ، وأما المفرد فكما تقول عند التعداد : دار ،

غلام ، جارية ، ثوب ، الى غير ذلك •

البلاغة

● وأما بلاغة الكلام :

فهي مطابقتها لمقتضى الحال^(١) مع فصاحته .

(١) أى لجميع ما يقتضيه الحال على قدر الطاقة ، فالمراد المطابقة الكاملة وقوله لمقتضى الحال أى لمناسب الحال لا موجهه ، والمراد بمناسب الحال الخصوصيات التى يبحث عنها فى علم المعانى دون كفيات دلالة اللفظ التى يتكفل بها علم البيان اذ قد تتحقق البلاغة فى الكلام بدون رعايتها بأن يؤدى الكلام المطابق بدلالات وضعية . نعم اذا أدى المعنى بدلالات عقلية مختلفة فى الوضوح والخفاء فلا بد فى بلاغة من رعاية كيفية الدلالة أيضا .

والحال هو الداعى للمتكلم الى ايراد الكلام على وجه مخصوص ، أى الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما ، وهى مقتضى الحال . مثلا أنكار المخاطب للحكم حال يقتضى تأكيده ، والتأكيد مقتضى الحال . ومعنى مطابقتها له أن الحال أن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكداً وان اقتضى الاطلاق كان الكلام عارياً عن التأكيد ، وهكذا أن اقتضى حذف المسند اليه حذفه وان اقتضى ذكره ذكره ، الى غير ذلك من التفاصيل المشتمل عليها علم المعانى . فالإنكار حال ، والتأكيد مقتضى ، وقولك « ان زيدا فى الدار » مؤكداً بان كلام مطابق لمقتضى الحال ، يعنى أنه مشتمل عليه ، اذ هذا المثال مشتمل على التأكيد . وليس المراد بكونه مطابقاً له أنه جزئى من جزئياته اذ لا يصدق عليه أى لا يحمل عليه ، ضرورة أن مقتضى الحال هو التأكيد وهو لا يحمل على قولك ان زيدا فى الدار اذ لا يقال « ان زيدا فى الدار » تأكيد ، فالمراد بالمطابقة هنا الاشتمال لا مصطلح المناطقة الذى هو الصدق .

والتحقيق أن مقتضى الحال هو الكلام الكلى المشتمل على الخصوصية ، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى كون الكلام الجزئى الصادر من المتكلم الملقى للمخاطب المشتمل على الخصوصية من أفراد ذلك الكلى الذى يقتضيه الحال ، فان ذلك المقتضى صادق عليه ، فقولنا « ان زيدا فى الدار » مؤكداً جزئى من جزئيات ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، الذى هو

ومقتضى الحال مختلف . فان مقامات الكلام متفاوتة (١) فمقام التنكير يباين مقام التعريف (٢) ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد (٣) ومقام التقديم يباين مقام التأخير (٤) ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ،

=
الإنكار المقتضى لكلام يؤكد بمطلق تأكيد لا بتأكيد مخصوص ، فقولنا « ان زيدا في الدار » مطابق له بمعنى أنه صادق ومحمول على هذا الجزئي المؤكد الذي هو مقتضى الحال صادق ومحمول على هذا الجزئي لكونه جزئيا من جزئياته . فالبلاغة على هذا التحقيق مطابقة هذا الجزئي لذلك الكلي بمعنى كونه جزئيا من جزئياته بحيث يصح حمل مقتضى الحال عليه ، فالكلام الجزئي مطابق (بكسر الباء) والكلام الكلي مطابق (بفتحها) . هذا هو تحقيق السعد في مختصره ، وان كان قد حقق في كبيرة ان التحقيق هو مذهب الجمهور الأول : من ان المقتضى هي الخصوصية والمطابقة هي الاشتمال . هذا والحال على المذهبين واحد ، وهو الأمر الداعي للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما ، سواء كان ذلك الأمر داعيا له في نفس الأمر أو غير داع في نفس الأمر بل بتنزيل ، فالحال هو الأمر الداعي مطلقا . أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعي في نفس الأمر لاعتبار المتكلم خصوصية ما ، فهو أخص من الحال .

(١) لأن الاعتبار اللائق بهذا المقام يفاير الاعتبار اللائق بذلك ، وهذا عين تفاوت مقتضيات الأحوال ، لأن التفاير بين الحال والمقام انما هو بحسب الاعتبار ، وهو أنه يتوهم في الحال كونه زمانا لورود الكلام فيه ، وفي المقام كونه محلا له .

(٢) فالمقام الذي يناسبه تنكير المسند اليه أو المسند يباين المقام الذي يناسبه التعريف .

(٣) أي مقام اطلاق الحكم أو التطبيق أو المسند اليه أو السند أو متعلقه يباين مقام تقييده بمؤكد أو أداة أو تابع أو شرط أو مفعول أو ما يشبه ذلك .

(٤) أي مقام تقديم المسند اليه أو متعلقاته يباين مقام تأخيره .

ومقام الإيجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى (١) .

وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام (٢) .. الى غير ذلك كما سيأتى تفصيل الجميع .

وارتفاع (٣) شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب (٤) ، وانحطاطه بعدم مطابقته له .

فستضى الحال هو الاعتبار المناسب (٥) .

(١) فان مقام الأول يباين مقام الثانى ، لأن الذكى يناسبه من الاعتبار اللطيفة والمعانى الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبى .
(٢) راجع ص ١٣ من المفتاح . وقوله ولكل كلمة أى كالفعل ، مع صاحبها أى كأداة الشرط مثل أن الشرطية ، اذ لها معها مقام ليس لذلك الكلمة مع ما يشارك تلك الصاحبة فى أصل المعنى كاذا الشرطية ، فالفعل الذى قصد اقترانه بأداة الشرط له مع أن مقام ليس له مع اذا وكذلك من أدوات الشرط مع الماضى مقبام ليس له مع المضارع ، على أن المراد بالكلمة أداة الشرط وبصاحبها الماضى وبمشارك الصاحبة الفعل المضارع . وهكذا ما يشبه ذلك فللفعل مع هل الاستفهامية مقام ليس له مع الهمزة ، والمسند اليه مع المسند الفعلى له مقام معه ليس له مع المسند الاسمى الخ .

(٣) راجع ص ٧٣ من المفتاح تجد ما هنا مأخوذاً منه بالنص والمقصود من هذا بيان تعدد مراتب البلاغة ، والحسن المراد منه الحسن الذاتى الداخلى فى البلاغة لا العرضى الخارجى لحصوله بالمحسنات البديعية ، والمراد بالقبول عند السامع ، والمراد بالكلام الكلام الفصيح .

(٤) أى باشماله على الأمر المعتبر المناسب لحال المخاطب ، فكما كان الاشتمال أتم كان الكلام أرفع وأعلى . فالمراد بالاعتبار المناسب الأمر الذى اعتبره المتكلم مناسباً بحسب السليقة للعرب الخاص أو بحسب تتبع خواص تراكيب البلفاء لغيرهم .

(٥) يعنى اذا علم أن ليس ارتفاع شأن الكلام الفصيح فى الحسن الذاتى الا بمطابقته للاعتبار المناسب على ما يفيدته أضافة المصدر - لأنه

وهذا - أعنى تطبيق الكلام على مقتضى الحال - هو الذى
يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، حيث يقول : النظم تأخى معنى
النحو فيما بين الكلم ، على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام .
فالبلاغة صفة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى (١) عند
التركيب (٢) .

وكثيرا ما يسمى ذلك (٣) فصاحة أيضا (٤) . وهو مراد الشيخ

مفرد مضاف لمعرفة فيعم والعموم فى هذا المقام يستلزم الحصر . . فالمعنى
كل ارتفاع فهو بالمطابقة ، فالباء فى قولنا : بمطابقته للسببية القريبة حتى
يفيد العموم - ومعلوم أنه إنما يرتفع بالبلاغة التى هى عبارة عن مطابقة
الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فقد علم أن المراد بالاعتبار المناسب
ومقتضى الحال واحد ، فهما متخذان أو متساويان ، فمقتضى الحال هو
مناسب الحال لا موجهه .

(١) صرح عبد القاهر بأن وصف اللفظ بالفصاحة إنما هو من حيث
أنه دال على المعنى (. دلائل الإعجاز) . والحاصل أنه إذا كانت البلاغة
هى المطابقة والمطابقة صفة المطابق فتكون المطابقة راجعة للكلام من رجوع
الصفة للموصوف ، لكن رجوعها له باعتبار افادته المعنى الحاصل بسبب
التركيب ، وهو المعنى الثانى الذى يعتبره البلغاء ، وهو الخصوصيات التى
يقتضيها الحال الزائد على أصل المراد . فالبلاغة إذا وصف بها المعنى
كان المراد المعنى الثانى باعتبار أن المقصود من اللفظ افادته . وإذا وصف
بها اللفظ فهو باعتبار افادته ذلك المعنى المقصود ونفيه عن اللفظ مراد به
اللفظ المجرد عن المعنى والخصوصيات ، ونفيها عن المعنى مراد به المعنى
الأول للفظ الذى هو مجرد ثبوت المحكوم للمحكوم عليه .

(٢) لأن البلاغة عبارة عن مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ،
فظاهر أن اعتبار المطابقة وعدمها إنما تكون باعتبار المعانى والأغراض التى
يصاغ لها الكلام لا باعتبار الألفاظ المفردة والكلم المجردة .

(٣) أى الوصف المذكور .

(٤) كما يسمى بلاغة ، فهما مترادفان ، عند عبد القاهر حقيقة ،
وعلى شئ من التجوز عند الخطيب .

عبد القاهر بما يكرره في دلائل الإعجاز من أن الفصاحة صفة راجعة الى المعنى دون اللفظ ، كقوله في أثناء فصل منه :

علمت أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجرى في طريقها أوصاف راجعة الى المعانى ، والى ما يدل عليه بالألفاظ ، دون الألفاظ أنفسها •

وانما قلنا مراده ذلك ، لأنه صرح فى مواضع من دلائل الإعجاز بأن فضيلة الكلام لتلفظه لا لمعناه ، منها أنه حكى قول من ذهب الى عكس ذلك فقال : « فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة أو أدبا أو اشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر » • ثم قال : « والأمر بالضد اذا جئنا الى الحقائق وما عليه المحصلون ، لأننا لا نرى متقدما فى علم البلاغة مبرزا فى شأوها الا وهو ينكر هذا الرأى » ، ثم نقل عن الجاحظ فى ذلك كلاما منه قوله : « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى^(١) وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك » •• ثم قال : « ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذى يعبر عنه سبيل الشئ الذى يقع التصوير فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار • فكما أنه محال اذا أردت النظر فى صوغ الخاتم وجودة العمل وردائه أن تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذى وقع فيه ذلك العمل ، كذلك محال اذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه ، وكما لو فضلنا خاتما بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغى اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون ذلك تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام » •

(١) ٣٤٠ ج ٣ الحيوان •• وذلك فى الصناعتين ص ٥٥ .

هذا لفظه ، وهو صريح في أن الكلام من حيث هو كلام لا يوصف
بالفضيلة باعتبار شرف معناه ، ولا شك أن الفصاحة من صفاته
الفاضلة ، فلا تكون راجعة الى المعنى ، وقد صرح فيما سبق بأنها
راجعة الى المعنى دون اللفظ .

فالجمع بينهما بما قدمنا بحمل كلامه حيث نفى أنها من صفات
اللفظ على نفى أنها من صفات المفردات^(١) من غير اعتبار التركيب ،
وحيث أثبت أنها من صفاته على أنها من صفاته باعتبار افادته المعنى
عند التركيب .

● والبلاغة طرفان :

أعلى ، اليه تنتهى ، وهو حد الاعجاز^(٢) ، وما يقرب منه^(٣) .

(١) أى المفردة عن اعتبار افادة المعانى - وهى الخصوصيات -
وليس المراد التى هى غير مركبة .

(٢) الاعجاز أن يرتقى الكلام فى بلاغته الى أن يخرج عن طوق البشر
ويعجزهم عن معارضته .

(٣) عطف على قوله (وهو) ، والضمير فى منه عائد الى أعلى ،
يعنى أن الأعلى مع ما يقرب منه كلاهما حد الاعجاز ، وهذا هو الموافق
لما فى المفتاح فالبلاغة أمر كلى لها ثلاث مراتب : مرتبة عليا ولها
فردان ، وسفلى وهى فرد واحد ، ووسطى ولها أفراد . ويترتب على هذا
أن بعض القرآن أبلغ من بعض وإن كان الجميع معجزا .
ويجوز أن يكون « وما يقرب منه » معطوفا على « حد الاعجاز »
والضمير فى منه عائد اليه ، يعنى أن الطرف الأعلى هو حد الاعجاز .
وما يقرب من حد الاعجاز . فهذا عكس الأول ، اذ الأول يفيد أن الطرف
الأعلى نوع تحته فردان : حد الاعجاز وما يقرب منه . والمراد بحد الاعجاز
البلاغة فى أقصر سورة ، وما يقرب منه البلاغة فى مقدار آية أو آيتين .
وفى التقدير الثانى نظر لأن القريب من حد الاعجاز لا يكون من الطرف الأعلى
الذى هو حد الاعجاز .

وأسفل ، منه تبتدىء وهو ما^(١) اذا غير الكلام عنه الى ما هو
دونه التحقق عند البلغاء بأصوات الحيوانات^(٢) وان كان صحيح
الاعراب ... وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة^(٣) :

واذ قد عرفت معنى البلاغة فى الكلام وأقسامها ومراتبها ، فاعلم

(١) أى هو طرف للبلاغة اذا غير الكلام عنه الى مرتبة هى أدنى منه
وانزل .

(٢) التى تصدر عن محالها بحسب ما يتفق من غير اعتبار اللطائف
والخواص الزائدة على أصل المراد .

(٣) أى بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية
الاعتبارات والبعد من أسباب الاخلال بالفصاحة بناء على ان البلاغة هى
المطابقة لمقتضى الحال فى الجملة ، لكن الحق كما فى عبد الحكيم أنها مطابقة
الكلام لجميع ما يقتضيه الحال لكن بقدر الطاقة .

هذا وبلاغة الكلام تتفاوت باختلاف الخصوصيات كما أو كيفا والمقام
واحد ، وباختلاف الخصوصيات تبعا لاختلاف المقامات ، ويترك خصوصية
مراعاة لحال المخاطب .

وللبلاغة طرف أسفل وطرف أعلى وما بينهما : أما الأسفل فهو الكلام
الفصيح الذى طابق أدنى مطابقة وليس تحته الا ما يلتحق بأصوات
الحيوانات . وأما الأعلى فهو حد الاعجاز الالهى وما يقرب منه
(وهو أبلغ كلام البشر) . . وبينهما مراتب لا تحصى .

ولنا أن نتساءل . هل فى طاقة البلغاء - بالطبع أو بالاكتساب -
الوصول الى حد الاعجاز ، ولو بأن يأتوا بمثال أقصر سورة من القرآن ؟
وللجواب على ذلك .

اقول : لا شك أن علوم البلاغة ترسم اصول البيان العربى والسليقة
العربية ومناهج الأداء والاسلوب ، وبالقوف على ذلك يمكن مع سلامة
الدوق محاكاة أهل هذه السليقة فى بلاغتهم ، فلنتكلم عن علوم البلاغة -
لأنها قواعد السليقة العربية ، وهل توصل الى حد الاعجاز ، وهل هى
صالحة كأداة للوصول الى مرتبة الاعجاز ؟ ولا شك أن علوم البلاغة
لا تؤدى الى الوصول لحد البلاغة لأنها لا تعرفنا المقامات بل الخصوصيات

أنه يتبعها وجوه كثيرة^(١) غير راجعة الى مطابقة مقتضى الحال ولا الى الفصاحة ، تورث الكلام حسنا وقبولا .

وحدها ، ولو فرضنا جدلا أنها تعرفنا مع الخصوصيات المقامات أيضا ، فلا تسلم الاحاطة بها لو فرضنا الاحاطة بها فإنها لا تعطيك قدرة على انشاء كلام بليغ بدليل ان كثيرا من علماء البلاغة لم يستطيعوا الاتيان بكلام بليغ ، ولو فرضنا أنها تعطى الملكة فلا شك في أن الملكة البشرية لا تقدر على مراعاة الخصائص كلها في الكلام البليغ .

هذا ويرى علماء البلاغة أن القرآن يتفاوت في بلاغته لأنه :

أ - قد يقتضى المقام عشر خصوصيات فيأتى الله عز وجل بخمس منها حسب قدرة البشر مراعاة للمقام .

ب - وقد تختلف المقامات فيكون مقام مقتضيا لعشر خصوصيات وآخر مقتضيا لخمس ولا شك أن الكلام الذى روعيت فيه العشرة ابلغ من الآخر .

وأرى أن القرآن لا تتفاوت بلاغته وأن أسلوبه وسوره وآياته في درجة واحدة من البلاغة . ويمكن الرد على رأى علماء البلاغة بما يأتى :

أ - أن مراعاة مقام المخاطب والاتيان بكلام يوافق حاله هو البلاغة الكاملة التى ليس فيها تفاوت .

ب - لا نسلم أن الكلام الأول ابلغ من الثانى بل هما في درجة واحدة من البلاغة ، لأن العبرة ليست بالكلم بل بالكيف ، واسو سلمنا لهم رأيهم لكأن سورة البقرة ابلغ من « قل هو الله أحد » أو لكأن ابلغ من نصفها ، أو لكان القرآن ابلغ من سورة منه .

(١) وهى المحسنات البديعية ، وتحسينها عرضى خارج عن حد البلاغة ، وإنما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة . وجعلها تابعة لبلاغة الكلام دون المتكلم لأنها ليست مما تجعل المتكلم متصفا بصفة .

والمحسنات البديعية ان اتى بها فى الأسلوب من حيث أنها محسنة بحث عنها فى علم البديع وكان تحسينها عرضيا ، أما اذا اعتبرت من حيث المطابقة فتحسينها ذاتى يبحث عنه فى علم المعانى .

هذا والبلاغة هى المطابقة والفصاحة واعتبار الخصوصيات ،

وأما بلاغة المتكلم :

فهى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ .
وقد علم بما ذكرنا (١) أمران :
أحدهما أن كل بليغ - كلاما كان أو متكلما فصيح (٢) ، وليس كله
فصيح بليغا (٣) .

الثانى أن البلاغة فى الكلام : مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ
فى تأدية المعنى المراد (٤) ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره (٥) .

فالمطابقة والفصاحة أعم من البلاغة من حيث التحقق ، لأنهما يوجدان
بدون البلاغة فيما اذا لم تراع الخصوصية ، وحينئذ فلا يعلم من كون تلك
الوجوه تابعة للبلاغة كونها غيرهما لأنهما تابعان لها أيضا باعتبار أنهما من
جملتها ، فاحتاج الى افادة أنها غيرهما ، فقال الخطيب فى التلخيص :
ويتبعها وجوه آخر ، فقله « آخر » يفيد أن تلك الوجوه ليست لازمة
للبلاغة لكونها سوى الأمرين اللذين تحصل بهما البلاغة وتلك الوجوه فى
الكلام انما تكون بعد البلاغة . ويقول السكاكى : البلاغة بمرجعها : علم
المعانى وعلم البيان ، والفصاحة بنوعيتها : اللفظية والمعنوية ، مما يكسو
الكلام حلة التزين ، وههنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يضار اليها لقصد
تحسين الكلام وهى قسمان : قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى
اللفظ ص ١٧٦ مفتاح .

(١) أى من تعريف البلاغة والفصاحة .
(٢) لأن الفصاحة مأخوذة فى تعريف البلاغة مطلقا ، أى بلاغة كلام
أو متكلم ، لكن أخذها فى بلاغة الكلام صراحة وفى بلاغة المتكلم بواسطة .
(٣) لجواز أن يكون كلام فصيح غير مطابق لمقتضى الحال . وكذا
يجوز أن يكون لأحد ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح
من غير مطابقة لمقتضى الحال .

(٤) والا ربما أدى المعنى المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال
فلا يكون بليغا .

(٥) الأولى أن يقال : والى الاحتراز عن أسباب الاخلال بالفصاحة .
وذلك لئلا يؤدي الكلام المطابق لمقتضى الحال بلفظ غير فصيح ، فلا يكون
أيضا بليغا لوجوب وجود الفصاحة فى البلاغة . ويدخل فى تمييز الكلام
الفصيح من غيره تمييز الكلمات الفصيحة من غيرها لتوقفه عليها .

والثاني - أعنى التمييز^(١) - منه ما يتبين فى علم متن^(٢) اللغة ،
أو التصريف^(٣) ، أو النحو^(٤) ، أو يدرك بالحس^(٥) ، وهو^(٦) ما عدأ
التعقيد المعنوى^(٧) .

وما يحترز به عن الأول - أعنى الخطأ^(٨) - هو علم المعانى .
وما يحترز به عن الثانى - أعنى التعقيد المعنوى - هو علم البيان^(٩) .

وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى
الحال وفصاحته ، هو علم البديع .

(١) أى تمييز الفصيح من غيره .

(٢) وذلك كالغرابية ، يعنى يعرف بعلم متن اللغة تمييز السالم من
الغرابية عن غيره بمعنى أن من تتبع الكتب المتداولة واحاط بمعانى المفردات
المانوسة علم أن ما عداها مما يفتقر الى تنفير أو تخريج فهو غير سالم
من الغرابية .

(٣) وذلك كمخالفة القياس .

(٤) كضعف التأليف والتعقيد اللفظى .

(٥) أى بالدوق وذلك كالشاعر فى مستشزر مثلاً أو فى « وقبر حرب :
البيت » .

(٦) وهو أى ما يبين فى العلوم المذكورة أو ما يدرك بالحس .

(٧) اذ لا يعرف بتلك العلوم تمييز السالم من التعقيد المعنوى من
غيره .

(٨) أى فى تأدية المعنى المراد .

(٩) يسمون هذين العلمين علم البلاغة لكان مزيد اختصاص لهما
بالألاغة وأن كانت البلاغة تشوق على غيرهما من العلوم كاللغة والنحو
والصرف .

وكثير من الناس يسمى الجميع علم البيان^(١) .

وبعضهم يسمى الأول علم المعاني ، والثاني والثالث علم البيان ،
والثلاثة علم البديع .



(١) والبيان في غير الاصطلاح هو المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير .

ملاحظة :

والمعنى الأول هو أصل المراد ، وهو ثبوت المحكوم به للمحكوم عليه ،
والمعنى الثاني هو الخصوصيات . كما يرى ابن قاسم وابن يعقوب والشيخ
يسن وسواهم ، وقيل المعنى الأول هو ما يفهم من اللفظ بحسب التراكيب
وهو أصل المعنى مع الخصوصيات من تعريف وتنكير الخ ، والمعنى الثاني
هو الأعراض التي يقصدها المتكلم ويصوغ الكلام لأجل إفادتها وهي أحوال
المخاطب التي يورد المتكلم الخصوصيات من أجلها من إشارة لمعهود وتعظيم
وتحقير وانكار وشك الخ ، وهذا بالنسبة لعلم المعاني ، وأما بالنسبة لعلم
البيان ، فالمعاني الأول هي المدلولات المطابقة مع رعاية مقتضى الحال ،
والمعاني الثواني هن المعاني المجازية أو الكنائية . وهذا هو المأخوذ من
الدلائل كما في المطول ، وكلام السعد في المختصر يصح حمله على الوجهين .
فأصل المراد إذا - الذي هو المعنى الأول - إفادة ثبوت المسند للمسند
إليه بأي طريق كان ، والخصوصية هي المزايا البلاغية التي يقصدها البليغ
كما يرى السعد وهي المعنى الثاني . . لكن عبد الحكيم يرى أن أصل المراد
هو أصل المعنى مع الخصوصيات ، والمعنى الثاني هو الأعراض ، راجع
التجريد عند شرح قوله « ويؤتى باسم الإشارة لإفادة القرب أو البعد
أو المتوسط » مثلاً . ومما في التجريد نستنبط : أن مباحث علم البلاغة عند
السعد تشمل المعاني الوضعية للألفاظ والتراكيب ، وهي عند السيد
خاصة بمستتبعات التراكيب ، وعند عبد الحكيم أن مباحثها شاملة للمعاني
الوضعية ومستتبعات التراكيب .

هذا والنكتة البلاغية لا يشترط فيها الاختصاص بتلك الطريق بل
يكفي كونها مناسبة للمقتضى موجبة كانت أو مرجحة أو لهم تكن كذلك ،
والتراجيح من قصد المتكلم ، وهذه هي طريقة المفتاح ، ومذهب الشارح
أن النكتة لابد أن تكون موجبة أو مرجحة .

الفن الأول

علم المعانى (١)

● تعريف الخطيب :

وهو علم^(٢) يعرف به أحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال^(٣) .

(١) قدم المعانى على البيان لكونه منه بمنزلة المفرد من المركب ، فاتصال المعانى بالبيان كاتصال المفرد بالمركب ، ونسبته اليه من جهة التوقف ، وان كان توقف المركب على المفرد من جهة كونه جزءا له ، بخلاف توقف البيان على المعانى فعلم المعانى كالمفرد والبيان بمنزلة المركب ، وذلك لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال التى هى ثمرة علم المعانى معتبرة فى علم البيان (من حيث انها شرط فى الاعتداد بثمرته التى هى الايراد ، فليس المراد اعتبارها فى البيان على سبيل الجزئية له ، لأنه ليس مركبا من اعتبار المطابقة وايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، فان الرعاية أمر خارج عن البيان ليست جزءا منه ولا فائدة له ، وانما هى شرط للاعتداد بفائدته ، فاعتبرت فيه من تلك الحيشية ، وأما الايراد فهو فائدة علم البيان ومقصود منه ، فاعتبر فيه من تلك الحيشية) مع زيادة شئ آخر هو ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة . فثمرة علم المعانى تشبه الجزء من علم البيان لتوقفه عليها من حيث اعتبار ثمرته ، فالرعاية والايراد يشبهان أجزاء علم البيان لتوقفه عليهما ، فكان علم المعانى بمنزلة الجزء ، لكون ثمرته المقصودة منه كالجزء . وانما قلنا من حيث اعتبار ثمرته ، لأن تحققه لا يتوقف على رعاية المطابقة ، ومنه يمكن تحقق ملكة يقتدر بها على ايراد المعنى بطرق مختلفة وضوحا وخفاء من غير رعاية للمطابقة ، ولا شك أن هذه الملكة تسمى علم البيان .

(٢) أى ملكة يقتدر بها على ادراكات جزئية ، ويجوز أن يراد به الأصول والقواعد المعلومة .

(٣) أى يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، وذلك احتراز من الأحوال التى ليست بهذه الصفة ، مثل الاعلال والادغام والرفع والنصب وما أشبه ذلك مما لا بد منه فى تأدية أصل المعنى ، وكذا المحسنات البديعية من

قيل : « يعرف » دون « يعلم » ، رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرفة بالجزئيات ، كما قال صاحب « القانون »^(١) في تعريف الطب : الطب علم يعرف به أحوال بدن الانسان ، وكما قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله^(٢) : التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكم .

● تعريف السكاكى :

وقال السكاكى : « علم المعانى : هو تتبع خواص تراكيب الكلام

التجنيس والترصيع ونحوهما مما يكون بعد رعاية المطابقة ... والمراد أنه علم تعرف به هذه الأحوال من حيث أنها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، لظهور أن ليس علم المعانى عبارة عن قصور معانى التعريف والتنكير مثلا ، وبهذا يخرج عن التعريف علم البيان إذ ليس البحث فيه عن أحوال اللفظ من هذه الحيثية ... والمراد بأحوال اللفظ الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والاثبات والحذف وغير ذلك .

ومقتضى الحال على التحقيق هو الكلام الكلى للتكييف بكيفية مخصوصة على ما أشير إليه في المفتاح وصرح به الشيرازى فى شرحه - وذلك حيث يقول السكاكى فى تعريف علم المعانى : هو تتبع خواص تراكيب التلفاء الخ ، فهو يشير الى أن المقتضى هو الكلام المتكيف بتلك الكيفيات ، لأن الذى يذكر إنما هو الكلام لا الحذف والتقديم الخ ... وأورد أن الذى يذكر إنما هو الكلام الجزئى لا الكلى فهو كالكيفيات لا يذكر ، إلا أن قلنا أنه شاع وصف الكلى بوصف جزئيات - ، لا نفس الكيفيات من التقديم والتأخير والتعريف والتنكير على ما هو ظاهر عبارة المفتاح وغيره ، ولو أريد بمقتضى الحال الكيفيات لا الكلام ، لما صح القول بأنها أحوال بها يطابق اللفظ مقتضى الحال لأنها عين مقتضى الحال .. وأحوال الاسناد أيضا من أحوال اللفظ باعتبار أن التأكيد وتركه مثلا من الاعتبارات الراجعة إلى نفس الجملة . وتخصيص اللفظ بالعربى مجرد اصطلاح لأن الصناعة إنما وضعت لذلك .

(١) هو ابن سينا و « القانون » أحد مؤلفاته المشهورة فى الطب .

(٢) هو ابن الحاجب عثمان بن عمر الامام العالم النحوى المشهور ،

مؤلف الشافية وسواها من الكتب المشهورة .

فى الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحتوز بالوقوف عليها
عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال ذكره (١) » •

● نقد تعريف السكاكى :

(قال الخطيب) : وفيه (٢) نظر :

١ - اذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه ، فلا يصح تعريف شيء
من العلوم (٣) به •

٢ - ثم قال (٤) : « وأعنى بالتراكيب تراكيب البلغاء » ، ولا شك
أن معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفة على معرفة البلاغة ، وقد
عرفها فى كتابه بقوله : « البلاغة : هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعنى
حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها (٥) وإيراد أنواع
التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » •

فإن أريد بالتراكيب فى حد البلاغة تراكيب البلغاء ، وهو الظاهر ،
فقد جاء الدور (٦) ، وإن أراد غيرها فلم يبينه •

(١) أى إيرادها فى الكلام •

(٢) أى فى تعريف السكاكى لعلم المعانى •

(٣) أجيب عن هذا الاعتراض : بأن المراد من التتبع العلم مجازا

مرسلا من اطلاق المسبب على السبب •

(٤) أى السكاكى كما فى المفتاح ص ٧٠

(٥) بأن يورد كل كلام موافقا لمقتضى الحال ، فالمراد بالتراكيب فى

تعريف البلاغة تراكيب ذلك المتكلم •

(٦) لأن علم البلاغة يتوقف على تراكيب البلغاء وتراكيب البلغاء

تتوقف على علم البلاغة ، ومتى عرفنا البلاغة فقد وصلنا الى حد نعرف به

توفيه خواص التراكيب حقها •

٣ - على أن قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به (١) .

● المقصود من علم المعاني :

ثم المقصود من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب :

أولها : أحوال الاسناد الخبري .

وثانيها : أحوال المسند إليه .

وثالثها : أحوال المسند .

ورابعها : أحوال متعلقات الفعل .

وخامسها : القصر .

وسادسها : الإنشاء .

وسابعها : الفصل والوصل .

وثامنها : الإيجاز والاطناب والمساواة .

ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء ، لأنه إما أن يكون

وقد أجيب عن اعتراض الدور هذا بأن بلاغة الكلام غير بلاغة المتكلم ، فلا يتوقف العلم بالبليغ المتكلم على العلم ببلاغة الكلام التي وقع فيها التحديد فلا يمتنع أخذ البليغ في الحد .

(١) وأجيب عن هذا الاعتراض بأن المراد به الاستهجان بقرينة الاستحسان . هذا وقد بسط الحفيد في « الدر النضيد » شرح تعريف السكاكي ونقده : وقال : المشهور أن المراد بالاستحسان المحسنات البديعية ، فالبدیع خارج عن المعاني والبلاغة ، والأوضح في تعريف علم الكلام العربي لمقتضى الحال .

لنسبته خارج تطابقه ، أو لا تطابقه • أو لا يكون لها خارج (١) ،

(١) تفصيل ذلك أن الكلام لا محالة يشتمل على نسبة تامة بين الطرفين قائمة بنفس المتكلم ، وهى تعلق أحد الشيئين - أى الطرفين : المسند أو المسند اليه - بالآخرة ، بحيث يصح السكوت على التعلق ، سواء كان ذلك التعلق ايجابيا أو سلبيا (وهذا لا يكون الا فى الخبر ، بخلاف الانشاء فلا يتصف بايجاب ولا بسلب ، لأنهما من أنواع الحكم ، والانشاء ليس بحكم ، بل هو آيجاد معنى بلفظ يقارنه فى الوجود) أو غيرهما كما فى المنشآت .

والمراد بالتعلق ما يشمل النسبة الحكمية - أعنى ثبوت المحمول للموضوع - وما يشمل النسبة الانشائية . والمراد بالايجاب ادراك الثبوت ، أى أنه مطابق للواقع أو غير مطابق ، وبالسلب عكسه فهو ادراك الانتفاء أى أنه مطابق للواقع أو غير مطابق . . وتفسير النسبة بايقاع المحكوم به على المحكوم عليه أو سلبه عنه خطأ فى هذا المقام ، لأنه لا يشمل النسبة فى الكلام الانشائي ، فلا يصح التقسيم .

والتحقق أن الانشاء له نسبة كلامية ونسبة خارجية تارة يتطابقان وتارة لا ، والفارق بين الخبر والانشاء هو قصد المطابقة أو قصد عدمها فى الخبر ، والانشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها ، وعبد الحكيم وغيره يقولون : الانشاء لا خارج له أذ لو كان له خارج لكان خبرا يتصور فيه الصدق والكذب اللذان هما من لوازم الخارجية ، واللازم باطل فبطل اللزوم .

هذا والخبر له ثلاث نسب : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة خارجية فى أحد الازمة الثلاثة . فبين طرفيه - اللذين هما النسبة الكلامية - فى الخارج والواقع نسبة ثبوتية أو سلبية بحيث يقصد مطابقة تلك النسبة لذلك الخارج بأن تكونا ثبوتيتين أو سلبيتين لا يقصد مطابقتها له ، بأن تكون النسبة المفهومة من الكلام ثبوتية والتي بينهما فى الخارج والواقع سلبية أو بالعكس ، وأما الانشاء فله نسبة ذهنية ونسبة كلامية ، والخلاف هل له نسبة خارجية أو لا ؟

قيل ليس له نسبة خارجية وهذا هو الفرق بينه وبين الخبر . . وقيل له نسبة خارجية ، والفرق بينهما أن الخبر يقصد فيه مطابقة النسبة للخارج أو عدم مطابقتها له ، والانشاء لا يقصد فيه ذلك .

=

الأول الخبر ، والثاني الانشاء . ثم الخبر لا بد له من اسناد ومسند اليه ومسند^(١) ، وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه^(٢) ، وهذا هو الباب الرابع . ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس . ثم الجملة اذا قرئت بأخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة^(٣) أو غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن .

* * *

= والخلاصة أن الكلام أما أن تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ويكون اللفظ موجدا لها من غير قصد الى كونه دالا على نسبة حاصلة في الواقع بين الشيئين وهو الانتماء ، أو تكون له نسبة بحيث يقصد ان لها نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه وهو الخبر ، لأن النسبة المفهومة من الكلام الحاصلة في الذهن لا بد أن تكون بين الشيئين ، ومع قطع النظر عن الذهن لا بد أن يكون بين هذين الشيئين في الواقع نسبة ثبوتية بأن يكون هذا ذاك ، أو سلبية بأن لا يكون هذا ذاك : الا ترى انك اذا قلت زيد قائم فان القيام حاصل لزيد قطعاً ، وثبوت النسبة في الواقع بين الشيئين المذكورين مع قطع النظر عن الذهن هو معنى وجود النسبة الخارجية فمعنى وجودها تحققها في الواقع .

(١) والانشاء كذلك أيضا ، وانما اقتصر على الخبر لكونه أعظم شأنه من الانشاء ، وأكثر اشتمالا على اللطائف البلاغية المعتبرة .
(٢) كالمصدر واسم المفعول وما أشبه ذلك ولا داعي لتخصيص هذا الكلام بالخبر .

(٣) احتراز بالفائدة عن التطويل فانه الزيادة على أصل المراد لا لفائدة ، على أنه لا حاجة الى قيد الفائدة بعد تقييد الكلام بالبليغ .
هذا وقد أفردت هذه الأحوال المتعلقة بالجملة بأبواب مستقلة دون غيرها من الأحوال - كالتعريف والتنكير مثلا - لصعوبة أمرها وكثرة تشعبها بكثرة مباحثها .

تطبيق :

١ - ميز الجمل الخبرية من الانشائية وعين المسند والمُسند اليه في كل جملة فيما يلي :

قال بعض البلغاء : لذت بعفوك ، واستنجرت بصفحك ، فأذقني حلاوة الرضا ، وأنسني مرارة السخط فيما مضى . وقال الشاعر :
ولا تصطنع ألا الكرام فانهم يجازون بالنعماء من كان منعما
ومن يتخذ عند اللئام صنيعا تجده على آثارها متندما

وقال ابن المعتز :

ليس الكريم الذي يعطى عطيته عن الثناء وأن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذي يعطى عطيته لغير شيء سوى استحسانه الحسن
لا يستثيب ببذل العرف محمده ولا بمن اذا ما قلد المننا

وقال شوقي :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا ان الحياة عقيدة وجهاد

وقال المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وقال زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويلزم

وقال عنتره :

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال

وقال الشاعر :

أيها الرائد في صمت الرعاة عد الى دنياك واهتف بالحياة

وقال حافظ :

ردوا على بياني بعد محمود اني عييت وأعيأ الشعر مجهودي

وقال أبو العلاء :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

تنبيه (١)

اختلف الناس فى انحصار الخبر فى الصادق والكاذب ، فذهب الجمهور الى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا :

١ - فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع (٢) . هذا هو المشهور وعليه التعويل .

٢ - وقال بعض الناس (٣) : صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر

(١) هذا بحث عقلى لا صلة له بمباحث البلاغة الا من ناحية انه كالتفسير والشرح لتعريف الخبر والانشاء ، وقد أشار عبد القاهر الى شيء من ذلك فى دلائله - راجع ص ٤٠٧ الى ٤١٠ من دلائل الاعجاز - ، كما ذكره السكاكى فى مفتاحه ص ٧٢ المفتاح ، وجارى الخطيب شيخه السكاكى بالسير على هذا المنوال .

(٢) أى الخارج الذى يكون لنسبة الكلام الخبرى ، فصدق الخبر على ذلك هو مطابقة نسبته الكلامية للنسبة الخارجية ، سواء طابقت الاعتقاد أو لا . وعلى هذا التعريف لا يخرج خبر الشاك عن الصادق والكاذب بخلافه على التفسير الثانى . . وتفصيل الأمر أن قولنا محمد قائم له ثلاث نسب : نسبة كلامية وهى ما يبدل عليه الكلام ، ونسبة ذهنية وهى ما يحصل فى الذهن من النسبة الكلامية ، ونسبة خارجية وهى النسبة التى بين الطرفين فى الواقع ، فمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية بأن يكونا ثبوتين أو سلبيتين صدق ، وعدم مطابقتها لها - بأن تكون احدهما ثبوتية والاخرى سلبية - كذب .

(٣) هو النظام الامام المعتزلى المتوفى عام ٢٣٥ هـ : وعلى رأى النظام يكون قول القائل « السماء تحتنا » صدقا اذا كان يعتقد ذلك ، ويكون قوله « السماء فوقنا » كذبا اذا لم يعتقد ذلك . والمراد بالاعتقاد الحكم الذهنى الجازم أو الراجح فيعلم العلم والظن ، أما الشك فواسطة بين الكذب والصدق ، اذ لا اعتقاد للشك ، وعلى هذا لا يتحقق انحصار الخبر فى الصدق والكذب لوجود الواسطة وهى خبر الشاك ، اللهم الا أن يقال انه كاذب ، لأنه اذا انتفى الاعتقاد صدق عدم مطابقته للاعتقاد . هذا والكلام

صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له • واحتج له بوجهين :

أحدهما أن من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ما كذب ولكنه أخطأ ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت فيمن شأنه كذلك : ما كذب ولكنه وهم •

ورد بأن المنفى تعمّد الكذب لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر كاليهودى اذا قال : « الاسلام باطل » وتصديقه اذا قال : الاسلام حق • فقولها (١) : « ما كذب » متأول بما كذب عمدا •

الثانى قوله تعالى : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ، كذبهم فى قولهم « انك لرسول الله » وان كان مطابقا للواقع لأنهم لم يعتقدوه •• وأجيب عنه بوجوده •

أحدها أن المعنى نشهد شهادة وأطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه ان والسلام وكون الجملة اسمية فى قولهم انك لرسول الله •• فالتكذيب فى قولهم « نشهد » وادعائهم فيها المواطأة ، لا فى قولهم « انك لرسول الله » (٢) •

وثانيهما أن التكذيب فى تسميتهم اخبارهم شهادة ، لأن الاخبار

المشكوك فيه يرى البعض انه ليس خبرا لأنه لا نسبة له فى الاعتقاد فهو خارج عن المقسم وهو الخبر •

(١) أى عائشة رضوان الله عليها •

(٢) وعلى هذا فالتكذيب فى الشهادة لا فى المشهور به ، بخلاف الوجه الثالث فالتكذيب فى المشهود به لكن فى الواقع بل فى زعمهم الفاسد لأنهم يعتقدون أنه غير مطابق للواقع ، فيكون كاذبا باعتقادهم وان كان صادقا فى نفس الأمر ، فكانه قيل أنهم يزعمون أنهم كاذبون فى هذا الخبر الصادق ، وحينئذ لا يكون الكذب الا بمعنى عدم المطابقة للواقع •

إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة .

وثالثها أن المعنى لكاذبون في قولهم : « انك لرسول الله » عند أنفسهم ، لا اعتقادهم أنه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه .

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين^(١) ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب . لأن الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، واما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه :

فالأول - أي المطابق مع الاعتقاد - هو الصادق^(٢) .

والثالث - أي غير المطابق مع الاعتقاد - هو الكاذب^(٣) .

والثاني والرابع - أي المطابق مع عدم الاعتقاد^(٤) ، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد^(٥) - كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

(١) أي الصادق والكاذب .

(٢) وصدق الخبر على هذا هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر أنه مطابق له .

(٣) فكذب الخبر هو عدم مطابقته للواقع مع اعتقاد أنه غير مطابق له .

(٤) أي مع عدم الاعتقاد أصلا أو مع الاعتقاد بأنه غير مطابق

(٥) أي أصلا أو مع اعتقاد المطابقة ، فالذي ليس بصادق ولا كاذب أربعة :

١ - المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة .

٢ - المطابقة بدون الاعتقاد أصلا .

٣ - عدم المطابقة مع اعتقاد المطابقة .

٤ - عدم المطابقة بدون الاعتقاد أصلا .

=

فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده - والكذب عدم
مطابقته مع اعتقاده .

وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع
عدم اعتقاده .

واحتج بقوله تعالى « افترى على الله كذبا أم به جنة (١) ؟ »
فأنهم حصروا دعوى النبى صلى الله عليه وسلم الرسالة فى الافتراء
والاخبار والاخبار حال الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس اخبار
حال الجنون كذبا لجعلهم الافتراء فى مقابلته ، ولا صدقا لأنهم
لم يعتقدوا صدقه ، فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب (٢) .
وأجيب عنه بأن الافتراء هو الكذب عن عمد ، فهو نوع من الكذب
فلا يمتنع أن يكون الاخبار حال الجنون كذبا أيضا لجواز أن يكون نوعا
آخر من الكذب وهو الكذب لا عن عمد ، فيكون التقسيم للخبر مطلقا ،
والمعنى « افترى أم لم يفتر ؟ » ، وعبر عن الثانى بقوله « أم به جنة » ،
لأن الجنون لا افتراء له .

= فكل من الصدق والكذب بتفسير الجاحظ أخص منه بالتفسيرين
السابقين ، لأنه اعتبر فى الصدق مطابقة الواقع والاعتقاد جميعا وفى
الكذب عدم مطابقتهما جميعا ، وقد اقتصر فى التفسيرين السابقين على
أحدهما ، فالجمهور اقتصروا فى تفسيرهم على اعتبار المطابقة للواقع
والنظام على اعتبار المطابقة للاعتقاد .

(١) الافتراء : الكذب . الجنة : الجنون .

(٢) يلاحظ أن هذا الدليل وإن أثبت الواسطة إلا أنه إنما أثبت قسما
واحدا من أقسام الواسطة الأربعة ، ألا أن مراد الجاحظ إبطال مذهب
غيره وإثبات مذهبه فى الجملة .

تنبيه آخر

وهو مما يجب أن يكون على ذكر الطالب لهذا العلم (١) .

قال السكاكي : ليس من الواجب في صناعة وان كان المرجع في أصولها وتفاريعها الى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها ، في استفادة الذوق منها ، فكيف اذا كانت الصناعة مستندة الى تحككات وضعية واعتبارات الفية ؟ فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبه في بعض فتاواه ان فاته الذوق هناك ، الى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق .

وكثيرا ما يشير الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز الى هذا ، كما ذكر في موضع ما تلخيصه هذا : اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، ومن تحدثه نفسه بأن لما تومىء اليه من الحسن أصلا . فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها أخرى ، واذا عجبته تعجب ، واذا نبهته لموضوع المزية اقتبسه ، فأما من كانت الحالات عنده على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فليكن عندك بمنزلة من عدم الطبع الذي يدرك به وزن الشعر ، ويميز به مزاحفه من سالمه في أنك لا تنصدي لتعريفه ، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي بها يعرف ... واعلم أن هؤلاء وان كانوا هم الآفة العظمى في هذا الباب ، فإن من الآفة أيضا من زعمهم أنه لا سبيل الى معرفة العلة في شيء مما تعرف المزية فيه ، ولا يعلم الا أن له موقعا من النفس وحظا من القبول ، فهذا بتوانيه في حكم القائل الأول . . . واعلم أنه ليس اذا لم يمكن معرفة

(١) أى علم البلاغة .

الكل وجب ترك النظر فى الكل ، ولأن تعرف العلة فى بعض الصور فتجعلها (١) شاهدا فى غيره أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتعودها الكسل والهويناء ، قال الجاحظ : وكلام كثير جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمره مرة . فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا (٢) ، فلو أن علماء كل عصر منجرت هذه الكلمة فى أسماعهم ، تركوا الاستنباط لما ينته اليهم عن قبلهم ، لرأيت العلم مختلا (٣) .

* * *

(١) أى فتجعل علمك أو عرفانك بذلك .

(٢) وفى البيان والتبيين يقول الجاحظ : اذا سمعت الرجل يقول « ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » .

(٣) هذا هو نهاية تلخيص الخطيب لكلام عبد القاهر فى الدلائل .

القول في أحوال الاسناد الخبرى (١)

من المعلوم لكل عاقل أن قصد المخبر (٢) بخبره افادة المخاطب اما :

(١) البحث هنا عن الأمور العارضة للاسناد الخبرى : من التأكيد وعدمه وكونه حقيقة عقلية أو مجازا . الاسناد ضم كلمة أو ما يجرى مجراها - كالجملية الحانة محل مفرد نحو زيد قائم أبوه ، ومثل المركبات الاضافية والتقييدية - الى كلمة أخرى أو ما يجرى مجراها بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم احدهما - وهى المحكوم به والمسند - ثابت لمفهوم الأخرى - وهى المسند اليه .

(٢) أى من يكون بصدد الاخبار والاعلام ، والا فالجملية الخبرية كثيرا ما تأتى لأغراض أخرى غير افادة الحكم أو لازمه مثل :
التحسر والتحزن كما فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران « رب انى وضعتها أنثى » ، وقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبنى سهمى

وكاظهار الضعف كما فى قوله تعالى : « رب انى وهن العظم منى » .

وكبيان التفاوت الغريب فى المنزلة كما فى قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » الآية ، وقوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وكالاستعطاف والاعتذار كقول النابغة :

نبئت أن قابوس أوعدنى ولا قرار على زار من الأسد
وكالتوبيخ كقولك : أنت تسىء الى من احسن اليك ، وكاظهار الفرح كقولك : انتصرنا على العدو اللدود . الى غير ذلك من الوجوه التى يفيدها الأسلوب . واستفادة التحسر وغيره من هذه الأساليب بطريق التلويح والاشارة فتكون هذه المعانى من مستتبعات التراكيب ، وقيل أن استعمال الكلام فى التحسر مثلا مجاز مركب ، لأن الهيئة فى مثله موضوعة للأخبار ، فاذا استعمل ذلك المركب فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة فاستعارة وأن كان لعلاقة غير المشابهة فمجاز مرسل .

نفس الحكم^(١) كقولك زيد قائم لمن لا يعلم أنه قائم ، ويسمى هذا فائدة الخبر . اما كون المخبر عالما^(٢) بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك : زيد عندك ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر^(٣) .

٤ - قال السكاكي :

(١) يطلق الحكم على النسبة الكلامية وهو المتعارف بين أرباب العربية ، ويطلق على المحكوم به ، وعلى اذعان النسبة أى ادراك أنها واقعة أو ليست بواقعة أى تحققها فى الخارج أو عدم تحققها وهذا هو المراد هنا . . . والحكم اعم من أن يكون مدلولاً حقيقياً للخبر أو مجازياً أو كناية .

(٢) المراد بالعلم هنا التصديق بالنسبة جزماً أو ظناً ، لا مجرد التصور .

(٣) لأن كل خبر أفاد المخاطب الحكم أفاد أن المخبر عالم بذلك الحكم ، وليس كل ما أفاد أنه عالم بالحكم أفاد نفس الحكم ، لجواز أن يكون الحكم معلوماً قبل الاخبار ، فيكون الخبر حينئذ قد أفاد لازم الفائدة ولم يفد الفائدة كما فى قولنا لمن قرأ كتاب الايضاح : أنت قد قرأت كتاب الايضاح . . . وتسمية مثل هذا الحكم فائدة الخبر بناء على أنه من شأنه أن يقصد بالخبر ويستفاد منه فان قيل ان المخاطب قد يلقي الخبر لفائدة الحكم ويففل عن كون المتكلم عالماً به ، أو يجيز بالحكم وهو شك أو جاهل فلم تكن الافادة أنه عالم بالحكم لازمة لفائدة نفس الحكم . والجواب ان المراد بال لزوم اللزوم فى الجملة أى أن ذلك اللزوم بالنظر للغالب .

والمراد بالعلم هنا المعنى المصطلح عليه عند المناطقة ، وهو الصورة الحاصلة فى الذهن وافقت الواقع أولاً ، وسواء كانت معتقدة للمتكلم اعتقاداً جازماً أو غير جازم ، لا الاعتقاد الجازم المطابق للواقع كما عليه المتكلمون .

(٤) هذا تفسير الفائدة بالحكم الذى يقصد بالخبر افادته ولازم الفائدة يكون المخبر عالماً بالحكم رأى الجمهور ومنهم السكاكى كما ترى فى المفتاح . . . وزعم العلامة الشيرازى أن فائدة الخبر هى استفادة السامع من الخبر أن المخبر عالم بالحكم ، وهو خلاف التحقيق .

« والأولى بدون هذه تمتنع ، وهذه بدون الأولى لا تمتنع ،
كما هو حكم المجهول المساواة (١) » .

أى يمتنع أن لا يحصل العلم الثانى من أخير نفسه عند حصول
الأول منه (٢) ، لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول ، مع أن سماع
الخبر من المخبر كاف فى حصول الثانى منه .

ولا يمتنع أن لا يحصل الأول (٣) من الخبر نفسه عند سماع الثانى
منه ، لجواز حصول الأول قبل حصول الثانى وامتناع حصول
الحاصل .

(١) وهو اللازم الأعم مثل لزوم الحيوانية للإنسانية فلا يلزم من العلم
بـالحيوانية العلم بالإنسانية .

(٢) للزوم حصول لازم فائدة الخبر كلما حصلت الفائدة ، فالعلم
الثانى وهو علم المخاطب بأن المخبر عالم بهذا الحكم من الخبر نفسه يوجد
عند حصول العلم الأول وهو علمه بذلك الحكم من الخبر نفسه ، إذ لو لم
يحصل العلم الثانى عند حصول الأول فاما لأنه قد حصل قبل وأما لأنه
لم يحصل بعد ، أما الأول - حصول العلم الثانى قبل الأول - فباطل لأن
العلم يكون المخبر عالما بالحكم لا بد فيه من أن يكون هذا الحكم حاصلا
فى ذهنه ضرورة ، والثانى باطل لأن علة حصوله سماع الخبر من
المخبر ، إذ التقدير أن حصوله إنما هو نفس الخبر ، فنبه الخطيب على
الأول بقوله : « لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول » ، ونبه على
الثانى ، لجواز حصول الأول قبل حصول الثانى فلا يمكن حصوله لامتناع
فإن قيل لا نسلم أنه كلما أفاد الخبر أفاد أنه عالم به ، لجواز أن يكون
خبره مظلونا أو مشكوكا أو موهوبا أو كذبا محضاً ، فالجواب أنه ليس
المراد بالعلم هنا الاعتقاد الجازم المطابق بل حصول صورة هذا الحكم
فى ذهنه وهذا ضرورى فى كل عاقل تصدى للأخبار .

(٣) أى يمتنع حصول العلم الأول من الخبر نفسه عند حصول العلم
الثانى ، لجواز حصول الأول قبل الثانى فلا يمكن حصوله لامتناع
حصول الحاصل ، كالعلم بكونه حافظاً للقرآن فى قولك : أنت حفظت
القرآن ، وحينئذ تسمية هذا الحكم فائدة الخبر على أن من شأنه
أن يستفاد من الخبر .

وقد ينزل العالم^(١) بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم ، فيلقى اليه الخبر كما يلقى الى الجاهل بأحدهما . . قال السكاكي :

وان شئت فعليك بكلام رب العزة : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون^(٢) » ، كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي ، وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم . ونظيره في النفي والاثبات « وما رميت اذ رميت^(٣) » وقوله تعالى : « وان فكشوا أيماهم من بعد عهدهم ، وطمعوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا إيمان لهم لعلمهم ينتهون » .

هذا لفظه^(٤) . . وفيه إيهام أن الآية الأولى من أمثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل بهما ، وليست منها ، بل هي من أمثلة تنزيل العالم بالشئ منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم ، والفرق بينهما ظاهر .

(١) أى المخاطب العالم بالفائدة ولازمها معا ، وكذلك العالم بأحدهما (الفائدة أو اللازم) فقط . وذلك لعدم جريه على مقتضى علمه ، فان من لا يجرى على مقتضى العلم هو والجاهل سواء ، كما يقال للعالم التارك الصلاة الصلاة واجبة ، وقولك لمن يسألك : ماذا أمامك ؟ وهو يعلم أنه كتاب : أمامي كتاب .

(٢) اللام في لقد موطئة للقسم ، أى واقعة في جواب قسم محذوف ، واللام في « لمن » ابتدائية ، وجملة « لمن اشتراه الخ » سددت مسد مفعولى علموا لتعليقه بلام الابتداء ، ومحل الشاهد قوله « لو كانوا يعلمون » ، وقد أثبت ذلك العلم لهم في صدر الآية . . هذا وتنزيل العالم بالشئ منزلة الجاهل به لاعتبارات بلاغية كثيرة في الكلام .

(٣) الآية من تنزيل وجود الشئ منزلة عدمه — وقوله في « النفي والاثبات » أى في نفي شئ وإثباته .

(٤) أى نص كلام السكاكي .

واذا كان غرض المخبر بخبره افادة المخاطب أحد الأمرين ، فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة :

١ - فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم^(١) - بأحد طرفي الخبر على الآخر - والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم كقولك : جاء زيد ، وعمرو ذاهب ، فيتمكن في ذهنه ، لمصادفته اياه خاليا .

٢ - وإن كان متصورا لطرفيه^(٢) ، مترددا في اسناد أحدهما الى الآخر ، طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد^(٣) ، كقولك لزيد عارف أو أن زيدا عارف .

(١) المراد بالحكم كما سبق الاعتقاد ولو غير جازم : وخلو الذهن من لازم الحكم مثل خلوه من الحكم في ترك التأكيد . والضمير في قوله : « والتردد فيه » للحكم بمعنى وقوع النسبة أو لا وقوعها ، ففي الكلام استخدام ، لأن ، التردد ليس في الحكم بمعنى التصديق . . والمراد أن المخاطب ليس عالما بوقوع النسبة أو لا وقوعها وليس مترددا في أن النسبة هل هي واقعة أو لا .

(٢) أي طرفي الحكم وهما المسند والمسند اليه .

(٣) أي باداة تأكيد واحدة ، ليزيل ذلك المؤكد تردده ويتمكن الحكم في نفسه .

هذا والمراد بالخالي من يخلو ذهنه عن التصديق بالنسبة الحكمية فيما بين طرفي الجملة الخبرية وعن تصور تلك النسبة . . والمراد بالتردد من تصور تلك النسبة الحكمية ولم يصدق بشيء من وقوعها وعدم وقوعها . . وبالمكرر من صدق بما يناهض مضمون الجملة الملقاة اليه .

واعتبار هذه الاحوال في المخاطب وايراد الكلام على الوجوه المذكورة بالقياس الى فائدة الخبر اعنى الحكم ظاهر ، وأما بالقياس الى لازمها فيمكن اعتبار الخلو وتجرد الجملة عن المؤكد ، وأما اعتبار التردد والانكار على الوجه المذكور فلا يجرى في اللازم .

٣ - وإن كان حاكما بخلافه وجب توكيده (١) بحسب الانكار (٢) ،
فتقول : « انى صادق » لمن ينكر صدقك ولا يبالغ فى انكاره ،
و « انى لصادق » لمن يبالغ فى انكاره • وعليه قوله تعالى « ضرب لهم
مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون ، اذ أرسلنا اليهم اثنين
فكذبوهما فعززننا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون ، قالوا ما أقم
الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، ان أقم الا تكذبون ،
قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون » •

ومؤكدات الحكم هى : ان والقسم ونونا التوكيد ولام الابتداء
وأسمية الجملة وتكريرها ولو حكما واما الشرطية وحروف التنبية
وحروف الزيادة وضمير الفصل وتقديم الفاعل المعنوى لتقوية الحكم ،
ومنها السين اذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه لأنها تفيد الوعد
أو الوعيد وهذا مقتضى لتوكيد الحكم ، وقد التى للتحقيق ، وكان ولكن
وانما وليت ولعل وتكرير النفى ، وبعضهم عد أن المفتوحة ، وقيل :
ليست منها لأن ما بعدها فى حكم المفرد .

والفرق بين التأكيد الواجب والمستحسن مع ان المستحسن عند
البلغاء واجب هو ان ترك المستحسن يلام عليه لوما أخف من اللوم على
ترك الواجب .

وقال عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ص ٢٤٩ : « أكثر مواقع ان بحكم
الاستقراء هو الجواب » ، لكن « يشترط - فيه أن يكون للسائل ظن على
خلاف ما أنت تجيبه به ، فاما ان يجعل مجرد الجواب أصلا فيها فلا ،
لأنه يؤدى الى أن لا يستقيم لنا أن نقول : « صالح » فى جواب كيف
زيد ؟ و « فى الدار » فى جواب : « أين زيد ؟ » حتى نقول : انه صالح ،
وانه فى الدار ، وهذا مما لا قائل به » ، فهو يرى أنه انما يحسن التأكيد
اذا كان للمخاطب ظن على خلاف حكمك أى تأكيد الحكم بمؤكد فأكثر
وقيل بأكثر من مؤكد فرقا بينه وبين التوكيد المستحسن .

(٢) أى بقدره قوة وضعفا ، يعنى يجب زيادة التأكيد بحسب
ازدياد الانكار .

حيث قال في المرة الأولى : انا اليكم مرسلون ، وفي الثانية :
انا اليكم مرسلون^(١) .

* * *

ويؤيد ما ذكرناه جواب أبي العباس^(٢) للكندى عن قوله : انى
أجد فى كلام العرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم ، وإن عبد الله
قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد . . . بأن قال ، بل المعانى
مختلفة ، « فعبد الله قائم » اخبار عن قيامه ، و « ان عبد الله قائم »
جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر .

* * *

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا^(٣) ، والثانى طلبيا ،
والثالث انكاريا ، واخراج الكلام على هذه الوجوه^(٤) اخراجا على
مقتضى الظاهر^(٥) .

(١) فأكد فى الأول بان واسمية الجملة ، وفى الثانية بالقهسم وان
واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين فى الانكار حيث قالوا : « ما أنتم
الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون » .

(٢) أبو العباس هو محمد بن المبرد يزيد المبرد الامام فى اللغة والنحو
وصاحب الكامل توفى عام ٢٨٥ هـ . والكندى أبو يوسف يعقوب بن اسحاق
فيلسوف العرب المشهور المتوفى نحو سنة ٢٥٣ هـ . وتجد الرواية كاملة
فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٢ وفى المفتاح أيضا ص ٧٤ .

(٣) أى غير مسبوق بطلب ولا بانكار .

(٤) وهى الخلو عن التأكيد فى الأول والتقوية بمؤكد استحسانا
فى الثانى ووجوب التأكيد بحسب الانكار فى الثالث .

(٥) أى مقتضى ظاهر الحال وهو أخص مطلقا من مقتضى الحال ،
فكل مقتضى الظاهر مقتضى الحال ، ولا عكس ، كما فى صور اخراج الكلام

=

وكثيرا ما يخرج على خلافه (١) :

١ - فينزل غير السائل منزلة السائل ، اذ قدم اليه ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرق له استشرق المتردد الطالب (٢) كقوله تعالى :

على خلاف مقتضى الظاهر ، فانه يكون على مقتضى الحال ولا يكون على مقتضى الظاهر ... هذا والحال هو الأمر الداعي الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة سواء كان ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع أو كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم كصور التنزيل ، أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعي الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع فلذا كان أخص من الحال مطلقا . ثم ان تلك الكيفية هي مقتضى الحال أو لظاهره ، كل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال دون عكس ، فعموم المقتضى يقتضى غير المقتضى .

(١) أى على خلاف مقتضى الظاهر . هذا وذكر بعضهم أن صور التخريج من باب الكناية ، لأنه ذكر اللام - وهو مدلول الكلام المشتمل على الخصوصية وهو المقام الذى لا يناسبه بحسب الظاهر مع قرينة غير مانعة من أرادته - واستعمل اللفظ فيه وقصد منه ملزومه الذى هو تنزيل المقام الغير المناسب منزلة المناسب . وقيل انه من قبيل الاستعارة المكنية ... والحق انه لا يقال فيه شيء من ذلك ، لأن الكلام هنا لم يوضع لهذه المعاني لأنها معان عرضية . هذا والصور هي :

- ١ - الخالى : - السائل - المنكر : بالنسبة لحال كل منهم .
- ٢ - العالم ينزل منزلة الخالى أو السائل أو المنكر .
- ٣ - الخالى ينزل منزلة السائل أو المنكر .
- ٤ - السائل ينزل منزلة الخالى أو المنكر .
- ٥ - المنكر ينزل منزلة الخالى أو السائل .

فحال المخاطب بالخبر منحصر في العلم بالحكم والخلو منه والسؤال له والانتكار له . والعالم لا يخرج معه الكلام على مقتضى الظاهر . (٢) يلوح : يتسير . استشرق فلان الى الشيء اذا رفع رأسه لينظر اليه وبسط كفه فوق الحاجب كالمستظل من الشمس .. هذا والنكتة في التنزيل الذى ذكرها الخطيب هي أنه قد قدم للمخاطب غير

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون »^(١) ، وقوله : « وما أبريء نفسي ان النفس لأماراة بالسوء » ، وقول بعض العرب :

فغنها وهي لك الفداء ان غناء الابل الحذاء^(٢)

وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض .
روى عن الأصمعي^(٣) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء^(٤) وخلف الأحمر^(٥) يأتیان بشارا^(٦) ، فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في

السائل ما يلوح له بالخبر فيتطلع له تطلع السائل المتردد . وقد يكون تنزيل غير السائل لأغراض أخرى ، كالاهتمام بشأن الخبر لكونه مستبعدا والتنبية على غفلة السامع الى غير ذلك .

(١) أي لا تدعني يا نوح في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك فهذا كلام يلوح بالخبر تلويحا ما ، ويشعر بأنه قد حق عليهم العذاب ، فصار لمقام مقام أن يتردد المخاطب في أنهم هل صاروا محكوما عليهم بالاغراق أم لا ، ف قيل « انهم مغرقون » مؤكدا ، أي محكوما عليهم بالاغراق .

(٢) الضمير في « فتغنها » للابل والحذاء من حدا الابل أو بها : ساقها وغنى لها .

(٣) عبد الملك بن قريب الامام في اللغة والادب ، توفي عام ٢١٤ هـ ، ونجد الرواية في الأغاني ص ٤٣ ج ٣ ، وفي الدلائل ص ٢١٠ وفي المفتاح ص ٧٥ .

(٤) وفي الأغاني : خلف بن أبي عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفي عام ١٥٤ هـ وخلف ابنه توفي في أواخر القرن الثاني الهجري .

(٥) من أئمة اللغة والشعر والادب توفي عام ١٨٠ هـ .

(٦) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفي عام ١٦٧ هـ .

ابن قتيبة (١) ؟ قال : هي التي بلغتكما ، قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب قال ، : نعم ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأجبت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالوا : فأشدها يا أبا معاذ فأشدهما :

بكرًا صاحبى قبل الهجير ان ذاك النجاح فى التكبير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « ان ذاك النجاح » : بكرًا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية فقلت « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرًا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه .

فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء - وهم من فحولة هذا الفن - إلا للطف المعنى فى ذلك وخفائه ؟

٢ - وكذلك بنزل غير المنكر منزلة المنكر اذا ظهر عليه شيء من أمارات الانكار (٢) . كقوله (٣) :

(١) قائد من كبار القواد المشهورين فى بدء عهد الدولة العباسية .

(٢) وغير المنكر يشمل الخالى والسائل والعالم وان كان المشال من تنزيل العالم منزلة المنكر .

(٣) البيت لحجل بن نضلة . شقيق : اسم رجل . عارضاً رمحه أى واضعاً له على العرض بأن جعله وهو راكب على فخذه ... فهو لا ينكر أن فى بنى عمه رماحاً لكن مجيئه هكذا واضعاً الرمح على العرض من غير التفات وتهيؤ اشارة على أنه يعتقد أنه لا رماح فيهم بل كلهم عزل لا سلاح معهم فنزله منزلة المنكر فأكد له الكلام فقال : « ان بنى عمك فيهم رماح » . وفى البيت تهكم واستهزاء كأنه يرميه بالضعف والجبن وبأنه لو علم أن فيهم رماحاً لما حملت يده السلاح ولفر من خوف الكفاح . فهو على طريقة قوله :

فقلت لمحرز لما التقينا تنكب لا يقطرك الزحام

جاء شقيق عارضا رموحه ان بنى عمك فيهم رماح

فان مجيئه هكذا مدلا بشجاعته قد وضع رموحه عرضا لدليل على
اعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم اليه من بنى عمه أحد . كأنهم
كلهم عزل ليس مع أحد منهم رموح .

٣ - وكذلك ينزل المنكر^(١) منزلة غير المنكر اذا كان معه ما ان
تأمله ارتدع عن الأفكار ، كما يقال لمنكر الاسلام : الاسلام حق^(٢) .
وعليه قوله تعالى في حق القرآن « لا ريب فيه^(٣) » .

والتقطير : الالتقاء على الأرض على البطن أو على أحد الجانبين . .
برميه بأنه لم يباشر الشدائد ولم يدفع الى مضايق الحروب ، كأنه يخاف
عليه ان يداس بالقوائم كما يخاف على الصبيان والنساء لقلة غنائه .

(١) ومثله المتردد . وغير المنكر هنا وان صدق بخالي الذهن والعالم
بالحكم والمتردد فيه الا أن المراد منه خصوص الأول . وقوله ما ان تأمله
أى شيء من الدلائل والشواهد بحيث لو تأمل المنكر ذلك الشيء ارتدع عن
انكاره ، ومعنى كونه معه . ان يكون معلوما له ومشاهداً عنده كالاسلام
حق لمنكر ذلك ، لأن مع ذلك المنكر دلائل دالة على حقيقة الاسلام .

(٢) اسمية لجملة هنا ليست مؤكدة لأنها انما تكون مؤكدة اذا اعتبر
تحويلها عن الفعلية أو اذا انضمت لغيرها من المؤكدات أو أن اسمية
الجملة ليست مؤكدة الا اذا ناسب ذلك المقام .

(٣) ظاهر هذا الكلام انه مثال لجعل المنكر كغيره وترك التأكيد لذلك،
وبيانه أن معنى «لا ريب فيه» ليس القرآن بمظنة للريب ولا ينبغى أن يرتاب
فيه ، وهذا الحكم مما ينكره كثير من المخاطبين ، لكن نزل انكارهم منزلة
عدمه أو على الأصح نزل المنكر منزلة غير المنكر ، لما معه من الدلائل
الدالة على أنه ليس مما ينبغى أن يرتاب فيه ، من ظهور اعجازه وكون من
أتى به صادقا مصدوقا بالمعجزات . والأحسن أن يقال أنه تنظير لتنزيل
وجود الشيء منزلة عدمه - لا مثال للجعل - وذلك بناء على وجود
ما يزيله ، فانه نزل ريب المرتابين منزلة عدمه تعويلا على وجود ما يزيله،
حتى صح نفى الريب على سبيل الاستغراق المفهوم من وقوع النكرة في
سسياق النفي المفيد للعموم الشمولى ، فالنفي هنا هو نفس الريب على =

ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله تعالى : « ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم افكم يوم القيامة تبعثون » . أكد اثبات الموت تأكيداً وان كان مما لا ينكر لتنزيل الخطابين منزلة من يبالغ في افكار الموت لتماديهم في الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل « ميتون » دون « تموتون » كما سيأتى الفرق بينهما^(١) . وأكد اثبات البعث تأكيداً واحداً وان كان مما ينكر لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن لا ينكر ، بل اما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فينزل المخاطبون منزلة المترددين ، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته ، وحثاً لهم على النظر فيها ، ولهذا جاء تبعثون على الأصل .

* * *

هذا كله اعتبارات الإثبات وقس عليه اعتبارات النفي^(٢) ، كقولك : ليس زيد أو ما زيد منطلقاً أو بمنطلق ، والله ليس زيد

=

سبيل الاستغراق . وفى الأول ليس المنفى الريب بل كون القرآن مظنة له خطاباً لمنكرى ذلك . وهذا الوجه أحسن لأنه لا يحتاج الى التأويل الذى فى الوجه الأول وما لا يحتاج الى التأويل أولى مما يحتاج لتأويل .

(١) من أن الجملة الاسمية لافادة الثبوت والدوام ، والفعلية لافادة التجدد والحدوث .

(٢) أى أمثلة الاعتبارات الواقعة فى الاسناد فى الكلام المنفى من التجريد عن المؤكدات فى الابتدائى وتقويته بمؤكد استحساناً فى الطلبى ووجود التأكيد بحسب الإنكار فى الإنكارى . وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد معه النفي ، وينزل المنكر كغيره فيلقى إليه الكلام خلوا من التأكيد الخ .

خاتمة فى أغراض الخبر :

١ - افادة المخاطب الحكم (فائدة الخبر) .

٢ - افادة المخاطب أن المخبر عالم بالحكم (لازم الفائدة) =

أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق ، وما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد ، وما كان
زيد ينطلق ، وما كان زيد لينطلق ، ولا ينطلق زيد ، ولن ينطلق زيد ،
ووالله ما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد .

* * *

= ٣ - الفخر والتمدح كقول المتنبي :
أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

٤ - اظهار الفرح كقول الشاعر :
بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا
٥ - التنبيه والحث كقول الشاعر :

من راقب الناس مات غمما وفاز باللذة الجسور

٦ - الارشاد والوعظ كقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

٧ - اظهار الضعف : « انى وهن العظم منى » .

٨ - التحسر على الفاتت كقول الشاعر :

ذهب الصببا وتولت الأيام

٩ - التحذير كقولك : « مصير البخيل اللهم والاملاق » .

١٠ - التذكير بالتفاوت :

وما يستوى من عاش المجد سعيه ومن عاش في دنياه عيش البهائم

١١ - الاستعطاف :

فان اك مظلما معد ظلمته وان تك ذا عتبي فمثلك يعتب

١٢ - التوبيخ :

ذل من يغبط الدليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام

شواهد لمعرفة أغراض الخبر فيها ومقاصده :

قال ابراهيم بن المهدي :

اتيت جرما شنيعا وانت للعفو اهل

=

• • • • •
= وقال أبو العتاهية :

انى رأيت عواقب الدنيا فتركت ما أهوى لما أخشى
أبو نواس :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا
وبلغت ما بلغ أمرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذلك اثم
المعزى :

ان الذى ألوحشة فى داره تؤنسه الرحمة فى لحدّه
شاعر :

وليس أخى من ودنى رأى عينه ولكن أخى من ودنى وهو غائب

شواهد لخروج الخبر عن مقتضى الظاهر :

قال تعالى : وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم . وقال : قل هو الله
أحد ، الله الصمد . . وقال أبو العتاهية :

ان الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء اى مفسدة
وقال أبو الطيب :

ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب

وتقول لمن ينكر فائدة التعليم : التعليم ينهض بالامة ويرقى بالشعب .

● الحقيقة العقلية والمجاز العقلي :

فصل

● قال الخطيب :

الاسناد : منه حقيقة عقلية ، ومنه مجاز عقلي .

أما الحقيقة فهي اسناد^(١) الفعل أو معناه الى ما هو له عند المتكلم في الظاهر .

(١) معناه أى معنى الفعل يشمل المصدر واسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف . وأمثلة المبالغة تدخل فى اسم الفاعل ، والجار والمجرور يدخل فى الظرف . ويدخل اسم الفعل والمنسوب اليه نحو أتميم أبوك ؟ .

وقولنا « الى ما هو له » أى الى لفظ يكون الفعل أو ما فى معناه له .
أى لمعنى ذلك اللفظ : أى مدلول الفعل ومدلول اللفظ الدال عليه معنى الفعل ثابت لمدلول ذلك اللفظ .

معنى ذلك أن الحقيقة هي اسناد لفظ أى لفظ دل على معنى الفعل الى لفظ له ، فاذا قلنا « ضرب زيد » فقد اسندنا الى الفاعل لفظ الفعل وهو ضرب الدال على المعنى الذى هو وصف الفاعل فيكون حقيقة ، وكذا اذا قلنا « ضرب عمرو » فقد اسندنا الى المفعول وهو « عمرو » لفظ الفعل الذى هو « ضرب » الدال على وصف المفعول فيكون حقيقة . فالشئ المسند اليه الذى ثبت له الفعل أو معناه منحصر فى الفاعل فيما بنى للفاعل ، والمفعول به فى فعل بنى للمفعول ، فان الضاربة لزيد ثابتة له والضروبية ثابتة لعمرو ، بخلاف « نهاره صائم » فان الصوم ليس ثابتا للنهار بل للشخص ، فلذا كان الاسناد فيه مجازا بكونه لغير من هو له .

ولا يدخل هنا المبتدأ عند المصنف ، نحو انما هي اقبال ، لأن الاسناد اليه عنده واسطة بين الحقيقة والمجاز ، أما عند عبد القاهر والسكاكى =

والمراد بسعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل • وقولنا « فى الظاهر » ليشمل ما لا يطابق اعتقاده مما يطابق الواقع وما لا يطابقه •

فهى أربعة أضرب :

أحدهما ما يطابق الواقع واعتقاده ، كقول المؤمن : « أنبت الله البقل » و « شفى الله المريض » •

والثانى ما يطابق الواقع دون اعتقاده ، كقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » •

= فالمبتدا كالفاعل والمفعول فيما أسند اليه ، فالاسناد فى « زيد قائم » ليس حقيقة ولا مجازا عند الخطيب ، وكذلك فيما كان الخبر فيه جامدا مثل « هذا معدن » ، وأما اسناد « قائم » الى ضمير زيد فهو حقيقة .

ثم المراد بكون الاسند للمسند اليه كونه وصفا له وحقه ان ينسب اليه بالاتصاف . فمبنى كونه له ان معناه قائم به وهو متصف به ومنسب اليه ، وقوله الى ما هو له يشمل ما هو له فى الواقع والاعتقاد معا او فى الواقع فقط . وقوله « عند المتكلم » أى لما هو له عند المتكلم لا فى الواقع ونفس الامر .. وبهذا دخل فى تعريف الحقيقة : ما طابق الاعتقاد دون الواقع كقول الجاهل « أنبت الربيع البقل » .

وقوله فى « الظاهر » وعند المتكلم متعلقان بقوله « له » . وفى الظاهر - أى فى ظاهر حال المتكلم - يدخل ما لا يطابق الاعتقاد سواء طابق الواقع أم لا .

وبهذا صار التعريف متناولا لأربعة أقسام : ما يطابق الواقع والاعتقاد ، وما لا يطابق شيئا منهما ، وما طابق أواقع دون الاعتقاد ، وما طابق الاعتقاد دون الواقع .. ولم يخرج عن التعريف الا ما فيه اسناد لغير ما هو له عند المتكلم بحسب الظاهر . فالحقيقة العقلية أربعة أقسام كما ترى وكما سيدكر الخطيب ... والمعنى ان الحقيقة هى اسناد الفعل او معناه الى ما يكون هو له عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله ، وذلك الفهم بالا ينصب قرينة دالة على أنه غير ما هو له فى اعتقاده .

والثالث ما يطابق اعتقاده دون الواقع ، كقول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » معتقدا شفاء المريض من الطبيب ، ومنه قوله تعالى حكاية عن بعض الكفار : « وما يهلكنا إلا الدهر » • ولا يجوز أن يكون مجازا • والافتكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ لما فيه من إيهام الخطأ ، بدليل قوله تعالى عقيبه : « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » ، والمتجاوز المخطئ في العبارة لا يوصف بالظن ، وإنما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله •

والرابع ما لا يطابق شيئا منهما ، كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالما بحالها دون مخاطب •

وأما المجاز^(١) فهو اسناد الفعل أو معناه إلى ملابس^(٢) له غير

(١) المجاز أصله مجوز من جاز المكان تعداه لأن الاسناد تعدى مكانه الأصلي ... وعقلى نسبة العقل ، لأن التجوز والتصرف فيه في أمر معقول يدرك بالعقل وهو الاسناد ، بخلاف المجاز اللغوي فإن التصرف فيه في أمر تقلى ، وهو أن اللفظ لم يوضع لهذا المعنى ...

ويسمى مجازا حكما أي منسوباً للحكم بمعنى الإدراك ، أو أنه نسبة الحكم بمعنى النسبة والاسناد لتعلقه بها . والمراد بالحكم المنسوب إليه والمتعلق به مطلق نسبة سواء كانت اسنادية أو اضافية أو إيقاعية ، وحينئذ فهو من نسبة الخاص للعام أو من تعلق الخاص للعام ، فالمجاز كما يكون في الحكم وهو النسبة التامة ، يكون في النسبة الإضافية كمكر الليل ، والإيقاعية كنومت الليل أي أوقعت النوم عليه ... فالمراد بالحكم الذي تعلق به المجاز ليس خصوص النسبة التامة ، بل مطلق نسبة . فالمجاز إذا كان في الإضافية أو الإيقاعية يصدق عليه أنه متعلق بالحكم بمعنى مطلق نسبة من تعلق الخاص للعام .

ويسمى أيضا مجازا في الإثبات لحصوله في إثبات طرفين للآخر ، والتقيد بالإثبات لأشرفيته ، فمثل « فما ربحت تجارتهم » : جعل من قبيل المجاز لكون اسناد الربح إلى التجارة اسنادا إلى غير ما هو له ، أو أن ما ربحت تجارتهم بمعنى خسرت ، فالمجاز العقلي كما يكون في الاسناد المثبت

يكون في المنفى أيضا . ويسمى أيضا اسناد مجازيا نسبة الى المجاز بمعنى المصدر ، لأن الاسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله الى غير ذلك .
 ان قيل : أمجاز العقلي لا يختص بالاسناد أى النسب التامة ، بل يجرى في الاضافية والايقاعية ، واقتصارهم على الاسناد يوجب الاختصاص ، أجيب بأن اقتصارهم في التسمية على الاسناد لاشرفيته أو أن المراد بالاسناد مطلق النسبة من اطلاق الخاص وارادة العام .

(٢) أى الى شئ بينه وبين الفعل أو معناه ملابسة وارتباط وتعلق ، فالضمير في قوله « له » راجع « للفعل أو معناه » - « وغير ما هو له » أى غير الملابس الذى هو أى الفعل أو معناه له أى لذلك الملابس ، يعنى غير الفاعل الحقيقي فى المبني المفاعل ، وغير المفعول به فى المبني للمفعول به .
 وفى تعريف المجاز العقلي اشارة الى أنه لا بد فيه من علاقة (ويدل على ذلك قولنا الى ملابس له) وقرينة (ويدل عليها قولنا بتأويل) .
 وقصارى القول : أن المجاز العقلي هو « اسناد الفعل أو معناه الى غير ما هو له عند المتكلم فى الظاهر لعلاقة مع قرينة صارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له » .

علاقة المجاز العقلي :

المجاز العقلي لابد له من علاقة كما أن اللفوى كذلك . وظاهر كلام المصنف أن العلاقة المعتبرة هنا هى الملابسة فقط ، وأنه لا بد منها فى كل مجاز عقلي ، قال الشيخ يسن : لكن يبقى هناك شئ ، وهو أنه هل يكفى فى جميع افراد هذا المجاز كون العلاقة الملابسة ، أو لا بد أن تبين جهتها ، بأن يقال العلاقة هى ملابسة الفعل لذلك الفاعل المجازى من جهة وقوعه عليه أو فيه أو به ، كما قالوا فى المجاز اللفوى : أنه لا يكفى أن يجعل اللزوم أو التعلق هو العلاقة بل فرد منها ، لأن ذلك قدر مشترك بين جميع أفرادها ، فلا بد أن يبين أنه من أى وجه ! ؟

والمعتبر عند الزمخشري تلبس ما أسند اليه الفعل بفاعله الحقيقي ، لأنه قال : المجاز العقلي هو أن يسند الفعل الى شئ يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كتلبس التجارة بالمشتريين فى « فما ربحت تجارتهم » . . وقال الزمخشري قبل هذا الكلام : « وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز »

المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل ، كما يضاهي الرجل الأسد في جراته فيستعار له اسمه . . . وهذا هو رأى السكاكى أيضا . فالملابسة في المجاز العقلى عنده هى بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى . وفى كلام عبد القاهر اشارة الى ذلك أيضا (٣٣١ أسرار) ' فالربيع عنده قد شبهه بالقادر فى تعلق وجود الانبات به ، فذلك عنده على العرف الجارى بين الناس ، من أن يجعلوا الشيء اذا كان سببا أو كالسبب فى وجود الفعل كأنه فاعل .

والعلاقة المعتبرة في هذا المجاز هي المشابهة بين المسند اليه الحقيقي والمسند اليه المجازي في تعلق الفعل بكل في صحة اسناده لذلك المجازي ، والعلاقة في الاستعارة المشابهة بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي لأجل صحة نقل اللفظ من المعنى الحقيقي للمعنى المجازي .

وانواع العلاقة في المجاز العقلي هي :

ضمير المفعول وهو عيشة بعد تقديمه وجعله مبتدأ ، ثم حذف المضاف اليه اكتفاء بالمبتدأ في مثل « عيشة زيد راضية » ... وقال العدوى : أصله : « عيشة راضية صاحبها » ، فالرضا كان بحسب الأصل مسندا للفاعل الحقيقي (الصاحب) ثم حذف الفاعل وأسند الرضا الى ضمير العيشة ، وقيل عيشة راضيت ، لما بين الصاحب والعيشة من المشابهة في تعلق الرضا بكل ، وأن اختلفت جهة التعلق ، فصار ضمير العيشة فاعلا نحويا حقيقيا ، ثم اشتق من راضيت راضية ، وأسند الى المفعول ... ومذهب الخليل والبصريين أنه لا مجاز في هذا التركيب ، بل الراضية بمعنى ذات رضا حتى تكون بمعنى مرضية ، فهو نظير لابن وتامر ، قال الفري ونقله عنه الدسوقي : وهو مشكل بدخول التاء لأن هذا البناء يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ويمكن الجواب بجواز جعلها للمبالغة لا للتأنيث كعلامة ... وقيل راضية بمعنى كاملة .. والشاهد في « عيشة راضية » اسناد راضية للضمير المستتر الذي هو للعيشة ، وليس الشاهد في اسناد راضية للعيشة ، لأن الاسناد الى المبتدأ عند المصنف واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وكذا يقال فيما بعد هذا المثال من الأمثلة الآتية .

٢ - الفاعلية : فيما بنى للمفعول وأسند للفاعل الحقيقي ، كسيل مفعم ، لأن السيل هو الذي يفعم أى يملأ ، فأصله أفعم السيل الوادى أى ملأه ثم بنى أفعم للمفعول واشتق منه اسم المفعول وأسند لضمير الفاعل الحقيقي وهو السيل بعد تقديمه وجعله مبتدأ .

٣ - المصدر فيما بنى للفاعل وأسند للمصدر مجازا ، مثل شعر شاعر ، فقد أسند ما هو بمعنى الفعل (وهو شاعر) الى ضمير المصدر ، وحقه أن يسند للفاعل (أى الشخص) لأن الفاعل الحقيقي ، بحيث يقال شعر شاعر صاحبه ، لكن لما كان الشعر شبيها بالفعل من جهة تعلق الفعل بكل منهما صح الاسناد اليه مجازا ، والأولى أن يمثل بنحو جد جده لأن الجد مصدرا أسند اليه فعل الفاعل ، فحق الجد أن يسند للفاعل الحقيقي وهو الشخص لا الى الجد نفسه الذى أسند اليه لمشابهته له في تعلق الفعل بكل منهما . وإنما كان ذلك أولى لأن الشعر الذى هو مصدق الضمير فى شاعر يحتمل أن يكون بمعنى المفعول أى المشعور به لا المصدر الذى هو نفس الشعر فيكون من باب عيشة راضية ، أى يكون من باب

ما هو بتأويل وللفاعل ملابسات شتى (١) :

يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب .
فأسناده الى الفاعل اذا كان مبنيًا له حقيقة كما مر ، وكذا الى المفعول

ما بنى للفاعل وأسند للمفعول لا من باب ما بنى للفاعل وأسند للمصدر الذي
كلامنا فيه ، بخلاف « جد جده » فانه من ذلك القبيل . وانما قلنا الاولى
ولم نقل الحسواب ، لأن الشعر يحتمل أن يكون باقيا على مصدريته بمعنى
تأليف الكلام فيكون من ذلك القبيل . . فالحاصل أن « جد جده » من باب
ما بنى للفاعل وأسند للمصدر قطعاً ، وأما « شعر شاعر » فيحتمل أن
يكون منه أو من باب « عيشة راضية » . وما لا احتمال فيه أولى مما
فيه احتمال .

٤ - الزمانية : فيما بنى للفاعل وأسند للزمان لمشابهة الفاعل
الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهاره صائم .

٥ - المكانية : فيما بنى للفاعل وأسند للمكان لمشابهة الفاعل
الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهر جار ، لأن الماء هو الجارى
في النهر - أى الحفرة التى يكون الماء فيها - .

٦ - السببية : فيما بنى للفاعل وأسند للسبب مجازاً ، مثل بنى
الأمير المدينة في السبب الأمر ، لأن السبب نوعان : سبب أمر وسبب غائي
أو مالى ، قال ابن يعقوب : السبب المالى يسند اليه أيضاً مجازاً مثل
يوم يقوم الحساب ، فالقيام في الحقيقة لأهل الحساب لا لأجله ، فكان
الحساب علة غائية .

هذه هى علاقات المجاز العقلى ، وذكر ابن السبكي أن جميع علاقات
المجاز اللفظى ينبغى أن تأتى في العقلى .

(١) لما ذكر في تعريف الحقيقة العقلية « الملابس الذى له » ،
وفي تعريف المجاز العقلى « الملابس الذى ليس هو له » ، أخذ يبين التعريفين
ببيان الملابس ، فقال « وللفاعل ملابسات شتى » . . . ويصح فتح « باء
الملابس » وكسرهما ، لأن الملابس مفاعلة من الجانبين ، فكل واحد من
الفعل وما أسند اليه ملابس (بكسر الباء) وملابس (بفتحها) . الا أن
المناسب لقوله « يلبس الفاعل » أن يقرأ بالفتح . . . وقول الخطيب :
« وللفاعل ملابسات شتى . . الخ » هو نص كلام الزمخشري في تفسير
قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » ، وماخوذ منه .

إذا كان مبنيا له ، وقولنا « ما هو له » يشملهما • واسناده الى غيرهما
لمضاهاته لما هو له في ملابسة الفعل مجاز • كقولهم في المفعول به :
« عيشة راضية » و « ماء دافق » ، وفي عكسه « سبيل مفعم » وفي
المصدر « شعر شاعر^(١) » ، وفي « نهاره صائم » و « ليله قائم » ، وفي
المكان « طريق سائر » و « نهر جار » ، وفي السبب « بنى الأمير
المدينة » ، وقال :

(فلا تسألني واسألني عن خليقتي)

إذا رد عافى القدر من يستعيرها^(٢)

وقولنا بتأول يخرج نحو قول الجاهل : شفى الطبيب المريض ،
فإن اسناده الشفاء الى الطبيب ليس بتأول • ولهذا لم يحمل نحو قول
الشاعر الحماسي^(٣) •

(١) وجد جده • قال تأبط شرا •

إذا المرأ لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى امره وهو مدبر

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص • وفي السبكي أنه لعوف بن الأخوص •
وهو من قصيدة رواها صاحب المفضليات لعوف • ونسبه اللسان للمضرس
الأسدي • • وعافى فاعل ، والقدر مضاف اليه ، ومن اسم موصول مفعول •
وعافى القدر : المرق الذي يتأخر فيها ، وبقاؤه فيها سبب في رد من
يستعيرها ، فأسند بذلك الرد اليه من اسناد الفعل الى سببه •

(٣) هو الصلتان العبدى ، وبعد البيت قرينة تدل على المجاز وأرادته
وهو قول الشاعر :

فملتنا أنسا مسلمون على دين صديقنا والنبي
فليس هناك فرق بين البيت وكلام أبى النجم الآتى :
ومثال البيت في ذلك قول أسقف نجران :

منع البقاء تصرف الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى

وحاصل الكلام أنه لا بد في المجاز العقلى من التأول الذى حاصله نصب
القرينة الصارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له •

أشباب الصغير وأفنى الكب بر كر الغداة ومهر العشى

على المجاز ما لم يعلم أو يظن أن قائلة لم يرد ظاهرة . . كما استدل
على أن اسناد (ميز) الى (جذب الليالى) فى قول أبى النجم :

قد أصبحت (أم الخيار) تدعى

على ذنبنا كله لم أصنع

من أن رأت رأسى كرأس الأصلع

ميز عنده قنزعاً عن قنزع

جذب الليالى أبطئى أو أسرعى (١)

مجاز بقوله عقيبه :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى

حتى اذا واركأ أفق فارجمسى

وسمى الاسناد فى هذين القسمين من الكلام عقلياً لاستناده الى
العقل دون الوضع ، لأن اسناد الكلمة الى الكلمة شئ يحصل بقصد
المتكلم دون واضح اللغة ، فلا يصير ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة
بل بمن قصد اثبات الضرب فعلاً له ، وانما الذى يعود الى واضح اللغة :
أنه ضرب لاثبات الضرب لا لاثبات الخروج ، وأنه لاثباته فى زمان ماض
وليس لاثباته فى زمان مستقل ، فاما تعيين من ثبت له فانما يتعلق بمن
أراد ذلك من المخبرين . . ولو كان لغويًا لكان حكمنا بأنه مجاز فى مثل

(١) الجذب : الشد . القنزع : الشعر المجتمع فى نواحي الرأس .
عن بمعنى بعد . « أبطئى أو أسرعى » جملتان واقعتان حالا من الليالى
بتقدير القول أى مقولا فيها ذلك .

قولنا « خط أحسن مما وشى الربيع » من جهة أنه الفعل لا يصح إلا من الحي القادر حكما بأن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعل بالحي القادر دون الجماد ، وذلك مما لا يشك في بطلانه .

● تعريف السكاكي للحقيقة والمجاز العقليين :

وقال السكاكي :

الحقيقة العقلية : هي الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه (١) .

وانما قلت « ما عند المتكلم » ، دون أن أقوم « ما عند العقل » ليتناول كلام الجاهل اذا قال « شفى الطبيب المريض » ، رأيا شفاء المريض من الطبيب ، حيث عد منه حقيقة مع أنه غير مفيد لما في العقل من الحكم فيه . وفيه . فطر (٢) :

١ - لأنه غير مطرد (٣) ، لصدقه على ما لم يكن المسند فيه فعلا

(١) هو لا يخرج عن كلام عبد القاهر في الحقيقة العقلية : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد به على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة .

(٢) أي في تعريف السكاكي للحقيقة العقلية .

(٣) التعريف المطرد أي المانع بمعنى أنه كلما صدق التعريف صدق المعرف فهو مانع من دخول غير أفراد المعرف فيه .

والتعريف المنعكس أي الجامع بمعنى أنه كلما انتفى التعريف انتفى المعرف فهو جامع لأفراد المعرف ، ومثال عدم الجمع تعريف الحيوان بأنه جسم مفكر ، ومثال عدم المانع تعريفه بأنه جسم نام .

وسبب عدم الجمع كون التعريف أخص من المعرف كالمثال ، أو مبين له ، كتعريف الإنسان بالملك . . وسبب عدم المنع هو كون التعريف أعم من المعرف مطلقا ، فان كان أعم من وجه كان في التعريف عدم الجمع والمنع .

ولا متصلا به ، كقولنا : الانسان حيوان ، مع أنه لا يسمى حقيقة
ولا مجازا .

٢ - ولا منعكس ، لخروج ما يطابق الواقع دون اعتقاد المتكلم
وما لا يطابق شيئا منهما منه ، مع كونهما حقيقتين عقليتين كما سبق .
وقال (السكاكي) :

المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم
فيه لضرب من التأويل ، افادة للخلاف لا بواسطة وضع ، كقولك : أثبت
الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة .
قال (السكاكي) : وانما قلت « خلاف ما عند المتكلم من الحكم
فيه » . دون أن أقول خلاف ما عند العقل :

١ - لئلا يمتنع طرده بما اذا قال الدهري عن اعتقاد جهل ،
أو جاهل غيره : أثبت الربيع البقل ، رائيا انباته من الربيع ، فانه
لا يسمى كلامه ذلك مجازا ، وإن كان بخلاف العقل في نفس الأمر ،
واحتج (السكاكي) ببيت الحماسة وقول أبي النجم على ما تقدم .

٢ - ثم قال السكاكي : ولئلا يمتنع عكسه بمثل : كسا الخليفة
الكعبة وهزم الأمير الجند ، فليس في العقل امتناع أن يكسو الخليفة
نفسه الكعبة ولا أن يهزم الأمير وحده الجند ، ولا يقدح ذلك في كونهما
من المجاز العقلي .

وانما قلت « لضرب من التأويل » ليحترز به عن الكذب فانه
لا يسمى مجازا مع كونه كلاما مفيدا خلاف ما عند المتكلم .

وانما قلت « افادة للخلاف لا بواسطة وضع » ليحترز به عن
المجاز اللغوي في صورة ، وهي اذا ادعى أن « أثبت » موضوع
لاستعماله في القادر المختار أو وضع لذلك .

وفيه نظر (١) :

١ - لأننا لا نسلم بطلان طرده بما ذكر ، لخروجه بقوله : لضرب من التأول •

٢ - ولا بطلان عكسه بما ذكر ، إذ المراد بخلاف ما عند العقل خلاف ما في نفس الأمر ، وفي كلام الشيخ عبد القاهر إشارة الى ذلك ، حيث عرف الحقيقة العقلية بقوله : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه » فإن قوله « واقع موقعه » معناه في نفس الأمر وهو بيان لما قلبه ، وكذا في كلام الزمخشري ، حيث عرف المجاز العقلي بقوله : « أن يسند الفعل الى شيء يلتبس بالذي هو في الحقيقة له » ، فإن قوله في الحقيقة معناه في نفس الأمر • ونحو كسا الخليفة الكعبة إذا كان الاسناد فيه مجازا كذلك •

٣ - ثم القول بأن الفعل موضوع لاستعماله في القادر ضعيف ، وهو معترف بضعفه ، وقد رده في كتابه بوجوه ، منها : أن وضع الفعل لاستعماله في القادر قيد لم ينقل عن واحد من رواة اللغة وترك القيد دليل في العرف على الإطلاق فقوله : « افادة للخلاف لا بواسطة وضع » لا حاجة اليه ، وإن ذكر فينبغي أن لا يذكر الا بعد ذكر الحد على المذهب المختار ، على أن تمثيله بقول الجاهل « أفتت الريح البقل » ينافي هذا الاحتراز •

تنبيه :

قد تبين بما ذكرنا أن المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلي على ما ذكره السكاكي هو الكلام لا الاسناد ، وهذا يوافق

(١) أي في تعريف السكاكي للمجاز العقلي •

ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر في مواضع من دلائل الاعجاز ، وعلى ما ذكرناه هو الاسناد لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب^(١) رحمه الله عن الشيخ عبد القاهر^(٢) ، وهو قول الزمخشري في الكشف ، وقول غيره ، وإنما اخترناه لأن نسبة المسمى حقيقة أو مجازاً الى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الأول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل ، أعني الاسناد .

أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه : حقيقتيهما ومجازيتهما
أو أحدهما :

قال الخطيب :

ثم المجاز العقلي باعتبار طرفيه - أعني المسند والمسند اليه أربعة أقسام لا غير ، لأنهما اما :

١ - حقيقتان ، كقولنا أنبت الربيع البقل ، وعليه قوله :

فنام ليلى وتجلى همى

وقوله :

وشيب أيام الفراق مفارق

(وأنشزن نفسى فوق حيث تكون)

وقوله :

(لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى) ونمت وما ليل المطى بنائم^(٣)

(١) امام فى اللغة والنحو توفى عام ٦٤٦ هـ .

(٢) وهو ظاهر كلام عبد القاهر فى الأسرار والدلائل كما فهمته أنا .

(٣) لجرير ومثل البيت قول النعمان بن بشير :

٢ - واما مجازان كقولنا « أحيأ الأرض شباب الزمان » •

٣ - واما مختلفان ، كقولنا : « أنبت البقل شباب الزمان » ،
وكقولنا : « أحيأ الأرض الربيع » ، وعليه قول الرجل لصاحبه :
« أحييتني رؤيتك » أى أنستنى وسرتنى ، فقد جعل الحاصل بالرؤية
من الأئس والمسرة حياة ثم جعل الرؤية فاعلة له ، ومثله قول
أبى الطيب :

وتحىى له المال الصوارم والقنا ويقتل ما تحىى التيسم والجدا(١)

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه فى العطاء قتلا له ،
ثم أثبت الأحياء فعلا للصوارم ، والقتل فعلا للتيسم ، مع أن الفعل
لا يصح منهما • ونحو قولهم : « أهلك الناس الدينار والدرهم » :
جعلت الفتنة اهلاكا ، ثم أثبت الاهلاك فعلا للدينار والدرهم •

وهو فى القرآن كثير(٢) •

كقوله تعالى : « واذا قلت عليهم آياته زادتهم ایمانا » ، نسبت

= ألم تبتركم يوم بدر سيوفنا
وقول عمرو بن براق :

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته
ومثله فى المجاز قول الشاعر :

تهارى بأشرف التلاع موكل
وليلى - اذا ما جننى الليل - أرق

(١) الجدا : العطاء • وأجمع تعليق عبد القاهر على البيت فى الاسرار
ص ٣٢١ وقد نقل منه الخطيب •

(٢) رد به على مذهب الظاهرية الزاعمين عدم وقوع المجاز العقلى
كاللغوى فى القرآن لايهام المجاز الكذب والقرآن مثزه عنه • ووجه الرد أنه
لا ايهام مع القرينة •

الزيادة التى هى فعل الله الى الآيات لكونها سببا فيها • وكذا قوله تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أراد لكم » • ومن هذا الضرب قوله : « يذبح أبناءهم » ، الفاعل غيره ونسب الفعل اليه لكونه الأمر به • وكقوله : « ينزع عنهما لباسهما » ، نسب النزاع الذى هو فعل الله تعالى الى ابليس ، لأن سببه أكل الشجرة ، وسبب أكلها وسوسته ومقاسسته اياها : انه لهما لمن الناصحين • وكذا قوله : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » ، نسب الاحلال الذى هو فعل الله الى أكابرهم ، لأن سببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم اياهم بالكفر • وكقوله تعالى : « يوما يجعل الولدان شيئا » ، نسب الفعل الى الظرف لوقوعه فيه ، كقولهم : « نهاره صائم » • وكقوله تعالى : « وأخرجت أثقالها » •

وهو غير مختص بالخبر ، بل يجرى فى الاشياء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لى صرحا » ، وقوله : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا » ، وقوله : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » •

● أنواع القرينة :

(قال الخطيب) :

ولا بد له — أى للمجاز العقلى — من قرينة :

(أ) اما لفظية كما سبق فى قول أبى النجم (١) •

(١) « أفناه قيل الله للشمس اطلعى » الخ •

(ب) أو غير لفظية (أى معنوية) :

كاستحالة صدور المسند من المسند اليه المذكور أو قيامه به :
عقلا كقولك محبتك جاءت بى اليك ، أو عادة كقولك هزم الأمير الجند
وكسا الخليفة الكعبة وبنى الوزير القصر ، (لاستحالة ذلك فى العادة) .
وكصدور الكلام من الموحّد فى مثل قوله : « أشاب الصغير » ،
البيت (١) .

واعلم أنه ليس كل شيء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز بسهولة
بل تجدك فى كثير من الأمور تحتاج الى أن تهيبى الشيء وتصلحه له بشيء
تتوخاه فى النظم ، كقول من يصف جملا :

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

يريد أنه يهتدى بنور عينه فى الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى
فيها ، ولولاها لكأت الظلماء كالسد الذى لا يجد السائر شيئا يفرجه به
ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، فلولا أنه قال : تجوب له ، فعلق له بتجوب
لما تبين جهة التجوز فى جعل الجوب فعلا للعين كما ينبغى ، لأنه
لم يكن حينئذ فى الكلام دليل على أن اهتداء صاحبها فى الظلماء ومضيه
فيها بنورها ، وكذلك لو قال تجوب له الظلماء عينه لم يكن له هذا
الموقع ولا تقطع السلك من حيث كان يعييه حينئذ أن يصف العين بما
وصفها به .

(١) القرينة اما لفظية أو غير لفظية وهى المعنوية وتنقسم الى عادية
وعقلية ، وذلك مثل :

- أ - استحالة قيام المسند بالمسند اليه استحالة عادية .
- ب - أو استحالة قيامه به استحالة ضرورية . أى بدهية .
- ج - صدور الكلام الذى فيه الاسناد من الموحّد ، وهذا القسم
الثالث من المجاز العقلى هو الذى يحتاج الى دليل وتأمل ، اما القسم
الأول والثانى فمن المجاز الضرورى البدهى الذى لا يحتاج الى دليل .

واعلم أن الفعل المبني للفاعل في المجاز العقلي واجب أن يكون له فاعل في التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة^(١) لما يشعر بذلك تعريفه كما سبق ، وذلك قد يكون ظاهرا كما في قوله تعالى :

(١) هذا رأى الرازي والسكاكي والخطيب ، وعبد القاهر على خلافه ذلك :

فيرى الخطيب أن الفعل في المجاز العقلي لابد أن يكون له فاعل إذا أسند إليه يكون الإسناد حقيقة ، ومعرفة ذلك اما ظاهرة كما في « فما ربحت تجارتهم » واما خفية لا تظهر الا بمزيد نظر وتأمل كما في « سرتنى رؤيتك » لكثرة الاسناد الى أفعال المجازى وترك الاسناد الى الفاعل الحقيقي . . وقد اشترك السعد والسيد في ابطال ما وجهه الرازي والسكاكي من الشبه في هذا البحث .

قال الدسوقي : وتحرير النزاع أن المجاز العقلي هل يشترط في تحققه أن يكون للفعل المسند فيه فاعل محقق في الخارج أسند له ذلك الفعل قبل المجاز اسنادا حقيقيا معتدا به ، بأن يقصد في العرف والاستعمال اسناد ذلك الفعل لذلك الفاعل ، أو لا يشترط ؟ . فمذهب السكاكي والمصنف اشتراط ذلك لأجل أن ينقل الاسناد من ذلك الفاعل الحقيقي للفاعل المجازى ، فالفاعل ليس محققا في الخارج بل متوهم مفروض ولا يعتد بالاسناد للمتوهم المفروض ، فليس « لسرتنى » ولا « ليزيدك » فاعل في الاستعمال يكون الاسناد اليه حقيقة ، لعدم وجود تلك الأفعال المتعدية في الاستعمال ، أى أن المتكلم لم يقصد الاخبار بها بل استعمالها في لازمها ، فانتفاؤها بالنظر إلى قصد المتكلم وملاحظته لا بالنظر للواقع ، وكذا « أقدمنى » ، فان الاقدام ليس له فاعل حقيقى واسناد الاقدام فيه للحق مجاز عقلى ، فقد بولغ في كون الحق له مدخل في تحقق القدوم ، ففرض اقدام صادر من فاعل متوهم ثم نقل عنه واسند الى الحق مبالغة في ملابسته للقدوم ، كما ينقل اسناد الفعل من الفاعل الحقيقي الى الفاعل المجازى مبالغة في ملابسة الفاعل المجازى للفاعل الحقيقي ، فالمجاز في الاسناد ، لا في الفعل ، فالفاعل الحقيقي ليس موجودا محققا في الخارج بل متوهم مفروض ، ولا يعتد بالاسناد

=

« فما ربحت تجارتهم » ، أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعد نظر وتأمل ، كما فى قولك سرتنى رؤيتك أى سرتنى الله وقت رؤيتك ، كما تقول : أصل الحكم فى أنبت الريح البقل أنبت الله البقل وقت الريح ، وفى شفى الطبيب المريض : شفى الله المريض عند علاج الطبيب ، وكما فى قولك أقدمنى بلدك حق لى على فلان أى أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان أى قدمت لذلك ، ونظيره محبتك جاءت بى اليك ، أى جاءت بى نفسى اليك لمحبتك ، أى جئت لمحبتك .. وانما قلنا ان الحكم فيهما مجاز لأن الفعلين فيهما مستندان الى الداعى والداعى لا يكون فاعلا ، وكما فى قول الشاعر (١) :

وصيرانى هواك ربي لحينى يضرب المثل

أى وصيرنى الله لهواك وحالى هذه ، أى أهلكنى الله ابتلاء بسبب هواك ، وكما فى قول الآخر وهو أبو نواس (٢) :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زده نظيرا

==
الفعل للفاعل المتوهم المفروض ، وكذا يقال فى سرتنى رؤيتك ويزيدك وجهه حسنا : أنه بولغ فى كون الرؤية لها مدخل فى السرور ، والوجه له مدخل فى زيادة العلم بالحسن ، ففرض سرور وازدياد من فاعل متوهم ، ثم نقلنا عنه واستندا للفاعل المجازى وهو الوجه والرؤية للمبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفعل ، فقول الشيخ عبد القاهر : ليس لهذه الأفعال فاعل ، أى محقق فى الخارج يعتد باستنادها اليه .. هذا وما ذكر من أن الاستناد فى « أقدمنى بلدك حق الخ » من قبيل المجال العقلى غير متعين ، بل يجوز أن يراد بالاقدام الحمل على القدوم على جهة المجاز المرسل ، فيكون المعنى « حملنى على القدوم حق الخ » .

(١) هو ابن البواب كما فى الدلائل ص ٧٢ ، والكلام على البيت فى ص ٢٢٩ من الدلائل .. وينسب البيت لمحمد اليزيدى .
(٢) فى المطول لابن المعتز ، وهو لأبى نواس كما فى معاهد التنصيص وتجد البيت فى الدلائل ص ٢٢٩ .

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت .

وأنكر السكاكى وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وقال : الذى عندي نظمه فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى^(١) بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما سيأتى ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة^(٢) ،

(١) وكان عبد القاهر يرد ذلك الراى فى كلامه فى الأسرار (ص ٣٣١) .

(٢) تفصيل الكلام على راى السكاكى فى رد المجاز العقلى الى الاستعارة المكنية أنه بعد أن عرض للمجاز العقلى قال :

« هذا كله تقرير الكلام فى هذا الفصل بحسب راى الأصحاب من تقسيم المجاز الى لغوى وعقلى ، والا فالذى عندي هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى - وهو القادر المختار أى الله تعالى - بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة ، ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة ، فالمجاز كله لغوى أى فى الكلمة لا فى الاسناد (راجع ص ١٦٩ المفتاح) . والاستعارة بالكناية عنده أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم العادية للمشبه به مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفرد بها وتضيف اليها شيئا من لوازم السبع فتقول مخالب المنية نشبت بفلان .

وما ذهب اليه السكاكى هو حاصل شبهة أوردها عبد القاهر ورد عليها (٢٣١ من الأسرار) ، قال عبد القاهر فى أسلوب « صاغ الربيع الوشى » : فان قيل : ليس الكلام معقودا على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصوب والنسج به ؟ فالجواب أن هذا التشبيه ليس هو الذى

يعقد في الكلام ، انما هو عبارة عن الجهة التي راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر في اسناد الفعل اليه ، فقولنا في تشبيه منقول منطوق به ، وقول المعترض في تشبيه معقول غير منطوق به الخ .. وقد سار السكاكي على ضوء هذه الشبهة وقال : ليس في كلام العرب مجاز عقلي الخ ، والحامل للسكاكي على هذا الانكار كما يقول هو للاستعارة بالكناية ، ولكن يرد عليه أن ذلك ليس بأولى من العكس .. وقول السكاكي في الاستعارة بالكناية « هي أن نذكر المشبه الخ » أي هي ذكر المشبه أي هي المشبه المذكور .

وناقش الخطيب رأي السكاكي ، ورده بوجوه منها :

١ - أنه يستلزم أن يكون المراد : بعيشة في قوله تعالى « فهو في عيشة راضية » صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء في قوله « خلق من ماء دافق » فاعل الدفق ، لما سيأتي من تفسير الاستعارة بالكناية على مذهب السكاكي ، من أن حاصلها أن يشبه الفاعل المجازي المذكور بالفاعل الحقيقي في تعليق وجود الفعل به ثم يفرد الفاعل المجازي بالذكر ، وينسب اليه شيء من لوازم الفاعل الحقيقي .. توضيح المقام : أنه لا بد في الاسناد من مستعار منه ومستعار له ومستعار ، ففي أنشبت المنية أظفارها بفلان المستعار منه معنى السبع وهو الحيوان المفترس - والمستعار لفظ السبع ، والمستعار له معنى المنية ، ومعنى قولهم بالكناية أنك كنييت عن المستعار بشيء من لوازم معناه (أي الأظفار) ولم تصرح به ، وهذا على طريق الجمهور ، فيجعلون مدلول لفظ استعارة بالكناية المستعار أعني اللفظ الدال على المشبه به المضمّر ، والسكاكي يجعل مدلوله اللفظ الدال على المشبه فيقال عنده في تقريرها : شبهت : المنية بالسبع وأدعينا أنها فرد من أفرادها ، ثم أوردنا اللفظ الدال على المشبه مراداً منه المشبه به بواسطة قرينة دالة على ذلك (كلفظ الأظفار) ، وأما على طريق المصنف فمدلوله نفس التشبيه المضمّر في النفس فتسمية التشبيه استعارة بالكناية ... وقول السكاكي في « أنبت الربيع البقل » : « أن الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه - أي بإدخال المشبه في جنس المشبه به وجعله فرداً من أفراد ادعاء ، ونسبة الانيات إلى الربيع قرينة الاستعارة - يرد عليه أن هذا مخالف لما اشتهر من أن قرينة الاستعارة بالكناية عند السكاكي هي اثبات الصورة الوهمية المسماة =

== بالاستعارة التخيلية ، فيجب أن يؤول على أن المراد « وجعل نسبة ما هو على الاستعارة بالكناية غير الكائنة في المجاز العقلي ، وأما الواقعة فيه فنسبة شبيه بالانبات اليه قرينة » . . وأجيب : بأن ما اشتهر عنه محمول على الاستعارة بالكناية غير الكائنة في المجاز العقلي وأما الواقعة فيه فالقرينة فيه قد تكون أمرا محققا ، فما اشتهر عنه كلى ، ويدل على ذلك أنه نفسه صرح في بحث المجاز العقلي بأن القرينة قد تكون أمرا محققا كما في أنبت الربيع البقل . وقول السكاكى : المكنية « هي أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم المساوية للمشبه به » ، يريد « بالمساوية » التى تصدق حيث صدق وتكذب حيث كذب .

٢ - ويستلزم أن لا تصح الاضافة في نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم ، أى لان المراد بالنهار على هذا فلان نفسه ، واطافة الشئ الى نفسه لا تصح ، فكل تركيب أضيف فيه الفاعل المجازى الى الفاعل الحقيقى كما فى المثالين السابقين تكون - على هذا - الاضافة فيه غير صحيحة ، لبطلان اضافة الشئ الى نفسه اللازمة من كلامه ، لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه ، ولا شك فى صحة هذه الاضافة ووقوعها ، قال تعالى : فما ربحت تجارتهم ، قال الشاعر : فنام ليلى وتجلى همى ، وهذان المثالان اظهر ، لان « نهاره صائم » يمكن المناقشة فيه بأن الاستعارة انما هى فى ضميره المستتر لا فى « نهاره » على الاستخدام المعروف فى علم البديع . لكن المناقشة فى المثال ليست من أدب العلماء - قال الدسوقي فى « نهاره صائم » : اضافة الشئ الى نفسه انما توجد اذا كان المراد « بالنهار » وضمير « صائم » واحدا ، وأما اذا ارتكب الاستخدام وجعل الضمير فى « صائم » راجعا الى النهار ، لا بالمعنى الاول وهو الزمان ، بل بمعنى الشخص ، فلا يلزم اضافة الشئ الى نفسه ، لأن الاستعارة انما هى فى الضمير المستتر فى صائم لا فى نهاره .

٣ - وان لا يكون الا بالايقاد على الطين فى احدى الآيتين بالبناء فيهما لهامان مع أن النداء له فيكون الأمر له أيضا فلا يجوز تعدد المخاطب فى كلام واحد أو جمعه أو عطفه .

قال الدسوقي : قيل أن هذا الالتزام انما يتوجه على السكاكى اذا كان المسند مستعملا فى معناه الحقيقى ، وله أن يمنع ذلك مدعىا أن معنى « ابن » هو أمر بالبناء « وأوقد لى ياهامان » هو أمر بالايقاد ، فصح أن ==

== النداء له والخطاب معه . . وفيه أن هذا خروج عما نحن بصددده ، لانه حينئذ يكون المجاز في الظرف ، فيخرج عن المجاز العقلي كما يقول المصنف وغيره وعن الاستعارة بالكناية كما يقول السكاكي .

وقال ابن السبكي : أن إلزام الخطيب للسكاكي بنحو « ابن لي صرحا » بأن لا يكون الأمر بالبناء لهامان مع أن النداء له ، جوابه : أن المأمور بالبناء الباني بنفسه بعد اعتقاد دخول هامان نفسه في زمرة من يبني بنفسه مجازا .

٤ - ويستلزم أن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم : أنبت الربيع البقل وسرتني رؤيتك على الاذن الشرعى لأن أسماء الله تعالى توقيفية .

قال ابن يعقوب : ان ما ذهب اليه السكاكي يستلزم ايضا أن يتوقف استعمال نحو « أنبت الربيع البقل » و « شفى الطبيب المريض » و « سرتني رؤيتك » و يزيدك وجهه حسنا » - وكل ما كان مثل هذا الاستعمال - على سماعه من الشارع ، لان أسماء الله توقيفية ، فلا يطلق عليه تعالى اسم لا حقيقة ولا مجاز ما لم يرد اذن من الشارع كالرحمن فانه مجاز بخلاف ما لم يسم به الله نفسه في الكتاب ولا في السنة سواء كان مجازا أو حقيقة ، ولم يرد اطلاق الربيع والطبيب والرؤية على الله تعالى . لكن توقف مثل هذا الاستعمال على السماع غير صحيح ، لانه شاع استعماله حتى كاد أن يكون أجماعا سكوتيا ، فشيوعه يدل على أن المراد بالربيع غير الله . ولا يجاب عن هذا الإلزام بأن مذهب السكاكي أن أسماءه تعالى غير توقيفية ، لأن الرد عليه ليس باستعماله هو بل باستعمال غيره ممن يذهب الى غير ذلك مع عدم انكار غيره ، فصار استعمالا صحيحا ، ولو كان كما ذكر السكاكي لتركه من يراها توقيفية أو لا تكرر عليه .

ملاحظة :

المجاز العقلي له معنيان : اسناد الفعل أو ما في معنى الفعل الى ما ليس الاسناد له بعلاقة ، مع قرينة - والمجاز الذي سببه التصرف في أمور عقلية أي غير لفظية كجعل الفرد الغير المتعارف من أفراد المعنى المتعارف للفظ مثل جعل الشجاع فردا من أفراد الحيوان المفترس فتنقل اسمه اليه قائلا : « رأيت أسدا » أي رجلا شجاعا شبيها بالأسد . والمعنى الأول هو المراد هنا في هذا الباب .

ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة .

وفيما ذهب اليه (السكاكي) نظر :

١ - لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله تعالى « فهو في عيشة راضية صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء في قوله : خلق من ماء دافق فاعل . فاعل الدفق لا المنى ، لما سيأتى من تفسيره للاستعارة بالكناية .

٢ - وأن لا تصح الاضافة في نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم . لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وضافة الشيء الى نفسه لا تصح .

٣ - وأن لا يكون الأمر بالايقاد على الطين في احدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان ، مع أن النداء له .

٤ - وأن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم : أثبت الربيع البقل ، وسرتنى رؤيتك على الاذن الشرعى ، لأن أسماء الله تعالى توقيفية ، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء .

٥ - ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم : « فلان نهاره صائم » فان الاسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه ، ولهذا عد نحو قولهم « رأيت بفلان أسدا ، ولقيني منه أسدا » تشبيها لا استعارة ، كما صرح السكاكي أيضا بذلك في كتابه .

● تنبيه :

اننا لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان
كما فعل السكاكي ومن تبعه ، لدخوله في تعريف علم المعاني دون
تعريف علم البيان ♦

البحث البلاغى عن أسلوب المجاز العقلى وأطواره (١)

● سيبويه وهل أثبت المجاز العقلى ؟ :

قال صاحب الكتاب : مطر قومك الليل والنهار على الظرف ، وإن شئت رفعتَه على سعة الكلام ، كما يقال صيد عليه الليل والنهار ، كما قال جرير :

وفمت وما ليل المطى بنائم

فكأنه فى كل هذا جعل الليل بعض الاسم ، وكما قال الشاعر :
أما النهار ففى قيد وسلسلة والليل فى قعر منحوت من الساج

فكأنه جعل النهار فى قيد ، والليل فى جوف منحوت (راجع ١/٨٠)
سيبويه فى : باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول ويجرى الاسم
كما يجرى أجمعون على الاسم ينصب بالفعل لأنه مفعول) •

وقال : تقول سرت الليلة أهل الدار فتجرى الليلة فى سعة
الكلام ، ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سعة الكلام والاستخفاف :
« بل مكر الليل والنهار » فالليل والنهار لا يمكران ولكن المكر فيهما
(١/٨٩ الكتاب لسيبويه) •

وقال : باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى
الكلام وللايجاز والاختصار : فمن ذلك أن تقول : صيد عليه يومان
أى صيد عليه الوحش فى يومين ولكنه اتسع واختصر ، ومما جاء على
اتساع الكلام والاختصار • وأسأل القرية التى كنا فيها والغير التى

(١) هذه البحوث بقلم محمد عبد المنعم خفاجى •

أقبلنا فيها ، انما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل فى القرية
كما كان عاملا فى الأهل لو كان ها هنا ، ومثله بل مكر الليل والنهار
المعنى مكرهم فى الليل والنهار ، وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله ،
أى بر من آمن بالله ، وهذا أكثر من أن يحصى ، وقال الجعدى :

وكيف تواصل من أصبحت خلالتك كآبى مرحب

(راجع ١٠٨ - ١١٠ / ١ من الكتاب) •

هذا بعض ما ذكره سيبويه فى كتابه عن المجاز العقلى^(١) • وهو
يرشدنا الى رأى شيخ العربية فى مثل هذا الأسلوب • وبالأمعان
فيما نقلناه ها هنا عن سيبويه ندرك أنه يحمل هذه الأساليب
وما شابهها - مما حملته المتأخرون على المجاز فى الكلام أى على المجاز
العقلى - يحملها على السعة فى الكلام بالايجاز والحذف والاختصار ،
وأصلها على تقدير المضاف ، وبهذا التقدير تخرج هذه الأساليب عند
سيبويه عن معنى المجاز الذى نفهمه من كلام المتأخرين • • • فالمجاز
العقلى محمول عنده على السعة فى الكلام وحذف مضاف •

وسياتى نبسط رأى عبد القاهر فى ذلك ودفاعه عن أسلوب المجاز
العقلى ورده على من يرى أنه محمول على السعة والحذف من علماء
العربية كسيبويه ومن نهج نهجه فى فهم وتحليل هذا الأسلوب •

(١) وفى ص ١٦٩ ج ١ من الكتاب يقول سيبويه :
وأن شئت رفعت (فقلت ولا أناعى) فجاز على سعة الكلام ، من
ذلك قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى اذا أدكرت فانما هى اقبال وأدبار
فجعلها الاقبال والادبار فجاز على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم
وليلك قائم • • ولكنه جاز على السعة فاستخفوا واختصروا ، والسيرافى
والشنتمرى يجعلانه على تقدير مضاف أو تأويل المصدر باسم الفاعل •
وهذا ببيان معنى السعة الذى يقصده صاحب الكتاب •

● المبرد واسلوب المجاز العقلى :

وقال صاحب الكامل : « ليلة مزؤودة » أى ذات زؤد وهو الفزع وجعل الليلة ذات فزع لأنها يفزع فيها ، قال تعالى : بل مكر الليل والنهار أى مكركم فى الليل والنهار ، وقال جرير : ونست وما ليل المطى بنائم . وقال آخر : فنام ليلى وتجلى همى . (١/٦٥ كامل النسخة القديمة) .

وقال : العرب تقول فهارك صائم وليلك قائم أى أنت قائم وصائم ، كما قال تعالى : بل مكر الليل والنهار أى فى الليل والنهار ، وقال : ونست وما ليل المطى بنائم (١/١٠٤ كامل المبرد) .

وقال : « وأما خلة فثمانى » ، سماها بالمصدر مثل فانما هى اقبال وادبار ، نعتها بالمصدر لكثرة منها ، ويجوز أن يكون أراد ذات خلة ، ومثله : ولكن البر من آمن بالله (١٣٧ ج ١ كامل المبرد الطبعة القديمة) .

وقال : « ويمسى ليله غير فائم » أى فى ليله ، جعل الفعل لليل على السعة مثل فانما هى اقبال وادبار ، وفى القرآن بل مكر الليل والنهار (٢٤٨ ج ٢ كامل المبرد طبعة التجارية) .

ذلك ما فى كامل المبرد من كلام وتحليل لبعض الأساليب التى جعلها المتأخرون من أسلوب المجاز العقلى .

والمبرد فى تحليل هذه الأساليب يجمع بين رأى سيبويه السابق ورأى آخر جديد هو المبالغة ، والمبالغة من خصائص المجاز كما تعلم - فيقول فى « فانما هى اقبال وادبار » نعتها بالمصدر لكثرة منها (١٣٧ ج ١ كامل) ، فهو اذاً يجوز فى أسلوب « فانما هى اقبال وادبار » - وما يشابهه مثله طبعاً - أن يكون على المبالغة كما يقول عبد القاهر أى على المجاز ، أو على الحذف كما يقول سيبويه ، واذاً هو

لم يذهب الى مذهب سيبويه وحده ، وقد يكون المبرد قد أراد من المبالغة التشبيه البليغ ، هي اقبال ، أى شبيهة به . ولكن ذلك بعيد عن الأسلوب وعن مراد المبرد منه كما يخيّل لى .

وفى رسالة أخرى للمبرد هي « ما اتفق لفظه واختلف معناه فى القرآن » يقول المبرد :

وفى القرآن مختصرات ، فان مجاز كلام العرب يحذف كثيرا من الكلام اذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى ، فمن ذلك : واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، لما كانت القرية والعير لا يسألان ولا يجبيان علم أن المطلوب غيرهما (ص ٣٦) ، ولا يجوز على هذا جاء زيد وأنت تريد غلامه لأن المجيء يكون له ولا دليل فى مثل هذا على المحذوف . ومثل الأول : ولكن البر من آمن بالله ، أى بر من آمن بالله لأن البر لا يكون البار . ونظيره قول الجعدى : آ . . أصبحت خلالتك كأبى مرحب (أى كخلالة أبى مرحب) (٣٢ و ٣٣) .

ومن المختصر فى القرآن قوله تعالى : ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع . تأويله مثلكم ومثلهم كمثل الناعق بما لا يسمع فاختصر وحذف ، كقول النابغة : كأنت من جمال بنى أقيش ، أى جمل من جمال (٣٥) . . . والمبرد فى ذلك تابع لسيبويه فأقل عنه ، ورأيه عندي صحيح .

ابن المدبر والمجاز العقلى :

يرى ابن المدبر أن أسلوب « بل مكر الليل والنهار » من الحذف والالتساع ، وأن الكتاب ينبغي أن يتجنبوه . (راجع ص ١٨ الرسالة العذراء لابن المدبر نشر الدكتور مبارك) .

● نقد النثر والمجاز العقلي :

وكذلك كتاب « نقد النثر » ضئيل الصلة بالمجاز العقلي . قال :
ومن الاستعارة انطاق ما لا ينطق مثل « فوجد فيها جدارا يريد
أن ينقض فأقامه » ومثل : امتلأ الحوض وقال قطنى — وذكر أيضا
المثال : فللموت ما تلد الوالدة (٦٦ نقد النثر) . . ومن المعلوم أن كلامه
فى هذا قليل جدا من ناحية البحث البيانى وهو متأثر بخطابة أرسطو ،
حامل لهذه المثل على الاستعارة ، كما صنع عبد القاهر بعد .

● الأمدى وسلوب المجاز العقلي :

قال الأمدى فى موازته : المصادر قد تجعل أوصافا فى مكان أسماء
الفاعلين وانما تكون أوصافا على وجه من الوجوه وطريقة من اللفظ ،
وهى قولهم انما زيد دهره أكل ونوم وانما عمرو أبدا قيام وقعود ،
فتقيم المضاف اليه مقام المضاف لأنه يدل عليه أو تجعل زيدا نفسه
الأكل والنوم وعمرا القيام والقعود على المبالغة لأن ذلك كثير منهما
كما قالت : « فاقما هى اقبال وادبار » ، فجعلت الناقاة هى الاقبال
والادبار لأن ذلك كثير منها ، وان شئت كان المعنى ذات اقبال وادبار
فأقمت المضاف اليه مقام المضاف فهذه طريقة الوصف بالمصادر على
ما ذكرته ، فيقال هند الحسن كله ودعد الجمال أجمعه وزيد الهرم
أقصاه وعبد الله التيه بعينه : ان شئت كان المعنى هند صاحبة الحسن
كله ودعد ذات الجمال أجمعه وزيد أخو الهرم وعبد الله ذو التيه
فأقمت المضاف اليه مقام المضاف مثل واسأل القرية ، وان شئت
جعلت هنداً هى الحسن ودعدا هى الجمال على المبالغة لما كانتا
متناهيتين فى هذين الوصفين (٧٦ الموازنة طبعة صبيح) .

ورأى صاحب الموازنة قد حله أتم تحليل وان كان لا يخرج
عن رأى المبرد فى كثير ولا قليل . . فإن هذه الأساليب كلها بعيدة عن

المجاز العقلي إنما هي على الحذف والاختصار ، أما ما ذكره في الكامل من الأساليب من مثل : نهارك صائم وليلك قائم فقد حملهما على المبالغة أو على الحذف كما سبق : وسيبويه يحملها كلها على الحذف .

ومن تتمه الفائدة أن ننقل هذا النص عن المبرد وإن لم يكن وثيق الصلة بالمجاز العقلي ، قال المبرد : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - إنما نملئ لهم ليزدادوا اثما » مجاز مصيره إلى ذا كقوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وهم لا يلتقطونه مقدرين فيه ذلك ولكن تقديره : فكان مصيره إلى عداواتهم وحزنهم ، ومثله : ودورهم بخراب الموت نبيها ، أي إلى هذا تصير ، ومثل قول ابن الزبيري فسلموت ما تلد الوالدة ، أي أن هذا مصيرهم (٢٦ - ٢٨ ما اتفق لفظه للمبرد) .

● خطابة رأسطو والمجاز العقلي :

وقد ترجمت في القرن الثالث الهجري ولم يتأثر بها أئمة البيان كثيرا في فهم هذا الأسلوب ، وإنما كان جل تأثيرهم بأراء علماء العربية كسيبويه والمبرد وابن فارس ، وليس فيها إلا كلام قريب الصلة بالمجاز العقلي : قال :

« ومن التغيرات الاستعارية اللذيذة أن ينسب الأمر إلى صفة الفاعل مثل الشيخوخة تفعل الخير بدل الشيخ » .. وقال : ومن أنواع الاستعارة اللفظية أن تجعل أفعال الأشياء غير المتنفسة كأفعال ذوات الأتفس مثل الغضب لجوج (راجع باب العبارة في فن الخطابة في الشفاء لابن سينا) .

فهو هنا يجعل هذه الأساليب استعارة فقط ، لا حذفاً كما ذهب إليه سيبويه ، وصنيع الخطابة في هذا هو صنيع عبد القاهر ، فقد جعل ما شابه هذه الأساليب مجازاً عقلياً ورد أن تكون من الحذف سبيل .

• ابن فارس وأسلوب المجاز العقلي :

قال ابن فارس : ومن اللامات لام العاقبة : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » لم يلتقطوه لذلك ولكن صارت العاقبة ذلك (٨٧ صاحبى لابن فارس) •

وقال : ومن سنن العرب الحذف والاختصار ، ومنه « واسأل القرية » أراد أهلها ، وبنو فلان يطأوهم الطريق أى أهله ، ومنه فطأ السماء أى مطرها ، وعلى خوف من فرعون ، « اذن لأذقناكم ضعف الحياة » أى ضعف عذابها (١٧٥ صاحبى) •

وقال : ومن سنن العرب اضافة الفعل الى ما ليس فاعلا فى الحقيقة مثل جدارا يريد أن ينقض وهو فى شعر العرب كثير (١٧٩ و ١٨٠ صاحبى) •

وقال : باب المفعول يأتى بلفظ الفاعل ، تقول سر كاتم أى مكتوم ، وفى القرآن لا عاصم اليوم من أمر الله أى لا معصوم ، ومن ماء دافق ، وعيشة راضية أى مرضى بها ، وحرما آمنا أى مأمونا فيه • • قيل ويأتى الفاعل بلفظ المفعول به كقوله : انه كان وعده مأتيا • أى آتيا (١٨٧ و ١٨٨ صاحبى) •

وقال : ومن سنن العرب وصف الشئ بما يقع أو يكون منه كقولهم يوم عاصف أى عاصف الريح ، لأن عصفوف ريحه يكون فيه ، ومثله ليل نائم ، وليل ساهر لأنه ينام فيه ويسهر ، قال أوس : خذلت على ليلة ساهرة ، وقال عمرو بن براق : « وليلك من ليل الصعاليك فائم » • ومثله ، « وما ليل المطى بنائم » • ويقولون : لا يرقد وساده يريدون متوسدا الوساد (١٨٨ صاحبى) • • وقال : ومن سنن العرب التوهم والالهام وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعله كالحق كمسألة الرسوم (١٩٢) • • وقال : ومن سنن العرب الاضمار :

اضمار الأسماء ، واضمار الأفعال ، واضمار الحروف (١٩٦ - ١٩٨
الصاحبي) - والعرب تضمّر الفعل فيشتبه المعنى حتى يعتبر فيوقف
على المراد مثل « فاني لا ألام ظلي دخول » أي على ترك دخول ، وقال
الأعشى : أأزمت من آل ليلي ابتكارا ، أي من أجل آل ليلي
(ص ١٩٨ و ١٩٩) •• وقال : باب اضافة الشيء الى ما ليس له مثل
سرج الفرس وثمره الشجرة وغنم الراعي (ص ٢٠٥) • وقال : باب
اقتصارهم على ذكر بعض الشيء • وهم يريدون كله ومنه : ويبقى
وجه ربك الخ • (٢١٢ و ٢١٣) •

وبالتأمل فيما ذكره ابن فارس في الصاحبي نجده يفرق بين باب
الحذف وباب المبالغة والمجاز ، فيذكر مثل الحذف ويجعلها من الحذف ،
ويذكر مثل المبالغة كليل فائمه ويجعلها من وصف الشيء بما يقع فيه
أو يكون منه •

وابن فارس في هذا جد دقيق متحر للصواب فيما يرى ويقول •

● ابن الأثير والمجاز العقلي :

كذلك لم يعرض ابن الأثير في المثل السائر للمجاز العقلي ،
واخما جعل المجاز ثلاثة أقسام : توسع في الكلام وتشبيه واستعارة :

فالتوسع يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة
بين المنقول والمنقول اليه لطلب التوسع في الكلام ، وهو ضربان :

١ - ما يرد على وجه الاضافة واستعماله قبيح ، لبعده ما بين
المضاف والمضاف اليه ، وذلك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمّر الأداة ،
واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين الطرفين ، كان ذلك قبيحا مثل بح
صوت المال وماء الملام •

٢ - ما يرد على غير وجه الاضافة ، وهو حسن لا عيب فيه
مثل : قالتا أتينا طائعين ، فنسبة القول الى السماء من باب التوسع ،
لأنهما جماد لا ينطق ، وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ... وهذا النوع
الثاني قريب من أسلوب المجاز العقلي ، وابن الأثير يعده من التوسع
الذي هو قسم من أقسام المجاز .

• عيد القاهر والمجاز العقلي :

ليس عبد القاهر أول من تكلم على أسلوب المجاز العقلي ، فقد
تقدمه كثير من العلماء : كسيبويه والمبرد والآمدي وابن فارس ..
وفى هذا ما يبطل رأى القائل بأن المجاز الحكمي - العقلي - من
ابتداع عبد القاهر وحده ، وهو رأى ذهب اليه الدكتور طه حسين
في مقدمته لكتاب نقد النثر .

وبلاغه المجاز العقلي كما فهمها عبد القاهر سبق الى بيانها باختصار
وفى خفية المبرد والآمدي .

وجملة ما ذكره عبد القاهر في كتابيه الأسرار والدلائل عن المجاز
العقلي .. هي :

١ - اثبات وجود المجاز العقلي وبيان سر الفروق بينه وبين
المجاز في الكلمة .

٢ - بيان أن المجاز في الاثبات عقلي وفي الكلمة المثبتة لغوي .

٣ - بيان حد هذين النوعين من المجاز (المجاز الحكمي والمجاز
في المفرد) .

٤ - بيان القرينة على التجوز في المجاز العقلي والفرق بينه وبين
الأحاديث الكاذبة .

هـ - الكلام على بلاغة المجاز العقلي ودرجاته في البلاغة - من العامة والخاصة - وأن تقدير الحقيقة في الإسناد المجازي قد لا يتأتى في الأسلوب ، وتوضيح سر دقة الأساليب الخاصة في المجاز العقلي ، وتأويل نظرية علماء النحو التي يذهبون فيها إلى أن أسلوب المجاز الحكمي على تقدير مضاف ، والدفاع عن بلاغة المجاز الحكمي التي يهتضمها مثل هذا التقدير الحائف والتأويل البعيد .

وهذه الآراء مبسطة في كتابي « عبد القاهر ، والبلاغة العربية » بسطا وافيا ، فليرجع إليها من أراد .

● الراغب الأصفهاني والمجاز العقلي :

أكثر الأسباب التي يحتاج الفعل إليها في وجوده كما يقول الراغب عشرة : فاعل يصدر عنه كالنجار وعنصر يعمل فيه كالخشب وعمل كالنجر ، وزمان ومكان يعمل فيهما ، وآلة يعمل بها كالمنجر ، وغرض قريب كاتخاذ النجار ، وغرض بعيد كتحصين البيت به ، ومثال يعمل عليه ويقتدى به ، ومرشد يرشده . . وكل قد ينسب إليه الفعل فيقال أعطاني زيد إذا باشر الإعطاء ، وأعطاني الله لما كان هو الميسر له وربما جمع بين السببين : البعيد والقريب فيقال : أعطاني الله وزيد ، قال الشاعر :

حيالاً به جدفاً والاله وضرب لنا أجذم صارم

فنسب إلى الأول وهو الله وإلى السبب المتأخر وهو الضرب وإلى المتوسط وهو الجد . . وقال : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، فأسند إلى الأمر به ، قل يتوفاكم ملك الموت ، فأسند إلى المباشر له ، وقال الشاعر : وألبسني الهالكى . . . وقال : كساهم محرق^(١) . فنسب

(١) للحصين المرى (راجع ص ١٩ من المفضليات) .

الفعل الى عاملها وفي الثاني الى مستعملها ، وقال في صفة نبال : كستها
ريشها مضرحة . فنسب كسوتها الى الطائر الذي أخذ ريشه فجعل
لها : وقيل يذاك أوكتا وفوك نفخ ، فنسب الفعل الى الآلة المتصلة .

ويقال سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة . وقيل ضرب قاطع
وطعن جائف فنسب الى الحدث . وسر كاتم وعيشة راضية ، فنسب
الى المفعول . وقال تعالى : حرما آمنا . فنسب الى المكان . وقيل يوم
صائم وليل ساهر ، وما ليل المطى بنائم ، فنسب الى الزمان . .
ولما كانت أفعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد أن ينسب الى أحد
الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين . وقال :

أعطيت من لم تعطه ولو اتقضى حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه بنظرين مختلفين . . وهذا فصل من
تأمله لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ
الى المعنى ، بل ينظر في مثل هذا من المعنى الى اللفظ . ومن أجل هذا
قال قوم من المحصلين لا فاعل في الحقيقة لأى شيء من الأفعال الا الله
تعالى فإن فعله يستغنى عن الزمان والمكان والمادة ، ومن عداه من
الفاعلين فإن له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الإبداع
الى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا ويصح أن ينسب فعل الله تعالى
الى كل ما تقدم ذكره (١٨٠ - ١٨٢ الذريعة الى مكارم الشريعة) .

وبهذا يرى أن الراغب ينفي المجاز العقلى كافة ، ولكن في نظرى
أنه إنما ينظر الى المعانى كما قال في آخر كلمته ، ويوجه الألفاظ في
دلائلها الى ما تقتضيه المعانى ، ولا ينظر الى النظم والأسلوب وكيفية
أدائه للمعنى من حقيقة أو مجاز ، فهو عن هذا فى واد بعيد ، وشغل
شاغل .

● صاحب المصباح (١) وأسلوب المجاز العقلي :

وقد تأثر بدر الدين في كتابه في بحث المجاز العقلي بالسكاكي : قال : المجاز العقلي هو الكلام المزال أسناده عما هو له عند المتكلم الى غيره بضرب من التأويل والمراد بما الاسناد له عند المتكلم ما يعتقده قيام الفعل به أو صدوره عنه ، ولم أقل بغير العقل لأننا لم نرهم يحملون نحو « أشاب الصغير البيت » على المجاز ما لم يعلموا أو يظنوا صدوره عن غير جهل ، أو ما ترى كيف استدلوا على أن اسناد « ميز » الى الجذب في قوله :

ميز عنه قنزعاً عن قنزع جذب الليالي أبطنى أو أسرعى

مجاز بأن أتبعه قوله : « أفناه قيل الله الخ » الشاهد لتزاحته أنه يريد الظاهر ، وقولي بضرب من التأويل مخرج للكذب . وسمى هذا الضرب مجازاً عقلياً لتعدى الحكم فيه عن مكانه الأصلي من غير تغيير للوضع . ومن شرط هذا المجاز أن يكون للمسند اليه شبه بالمتروك في تعلقه بالعامل (٦٩ و ٧٠ المصباح) .

فهو يشبه المجاز العقلي ويفسره ويبين شروطه ويفرق بينه وبين الكذب .

● حسن التوسل في صناعة الترسل « والمجاز العقلي :

وهذا الكتاب متأثر في بحث أسلوب المجاز العقلي بمبدى القاهر ، قال : المجاز مفعل من جاز يجوز اذا تعداه . فإذا عدل باللفظ عما يوجه أصل اللغة وصف بأنه مجاز بمعنى أنهم قد جاوزوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً لأنه ليس بموضع أصلي لهذا

(١) هو بدر الدين بن ملك المتوفى عام ٦٤٩ هـ .

اللفظ ولكنه مجازه ومتعداه يقع فيه كالأواقف بمكان غيره ثم يتعداه الى مكانه الأصلي (١) . . وحدهما - الحقيقة والمجاز - في المفرد : أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهي حقيقة (١١٧ المرجع المذكور) كالأسد للحيوان واليد للجراحة ، وإن أريد بها غيره لمناسبة بينهما فهي مجاز كالأسد للشجاع واليد للنعمة أو القوة ، وحدهما في الجملة : أن كل جملة كان الحكم الذي دلّ عليه كما هو في العقل فهي حقيقة مثل خلق الله الخلق ، وكل جملة أخرجت الحكم المفساد بها عن موضعه في العقل لضرب من التأول فهي مجاز ، كما إذا أضيف الفعل الى شيء يضاهي الفاعل كالمفعول به في عشية راضية ، أو المصدر في شعر شاعر . أو الزمان في ليلة نائم ، أو المكان في طريق سائر ، أو المسبب في بنى الأمير المدينة ، أو السبب في وإذا قلت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، فمجاز المفرد لغوي ويسمى مجازاً في المثلث . ومجاز الجملة عقلية ويسمى مجازاً في الإثبات ، فالمجاز قد يكون في المثلث وحده مثل : فأحيينا به الأرض بعد موتها ، وقد يكون في الإثبات وهو أن يضيف الفعل الى غير الفاعل الحقيقي كما ذكرنا ، وقد يكون فيهما جميعاً كقولك آتستى رؤيتك أى سرتنى فجعل المسرة حياة ، وأسندتها الى الرؤية وهو مجاز في الإثبات (١١٨ حسن التوسل) .

(١) ذلك مأخوذ من عبد القاهر وقد سبق ابن فارس في كتابه « الصحاح » الى بيان ذلك قال : « باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز » : الحقيقة من حق الشيء اذا وجب . وهي الكلام الموضوع موضعه ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل « الحمد لله على نعمه وإحسانه » وهذا أكثر الكلام . وأما المجاز فمأخوذ من جاز يجوز اذا استن ماضياً ، نقول جاز بنا فلان وجاز علينا فارس ، هذا هو الأصل ثم نقول يجوز أن تفعل كذا أى تنفذ ولا يرد ولا يمنع ، ونقول عندنا دراهم وضح وازنة وأخرى تجوز جواز وازنة ، أى هي وإن لم تكن وازنة فهي تجوز مجازها وجوازها لقربها منها ، فهذا تأويل قولنا مجاز ، أى أن الكلام الحقيقي يمضى لسنته لا يعترض عليه أو قد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه إلا أن فيه من تشبيه واستعارة ما ليس في الأول ، (١٦٧ - ١٦٩ الصحاح) .

● الزمخشري والمجاز العقلي :

قال في الكشف في تفسير الآية الكريمة « ختم الله على قلوبهم » ما نصه : ويجوز أن يستعار الاسناد نفسه من غير الله أنه فيكون الختم متسندا إلى الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة ، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له فاسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يستند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة وذلك لمضاهاتها الفاعل في ملابسته الفعل (١) كما يضاهي الرجل الأسد في جراته فيستعار له اسمه ، فيقال في المفعول به : عيشة راضية وماء دافق وفي عكسه : سيل مفعم وفي المصدر شعر شاعر وذيل ذائل وفي الزمان نهاره صائم وليلة قائم ، وفي المكان طريق سائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون : صلى المقام ، وفي المسبب بنى الأمير المدينة ، وقال الشاعر : إذا رد عافى القدر من يستغيرها ، فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر إلا أن الله لما أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب .

وقال في الآية الكريمة : « فسا ربحت تجارتهم » ما نصه : فإن قلت كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ، قلت : هو من الاسناد المجازي وهو أن يسند الفعل إلى شيء يئلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتري .

(١) فالزمخشري يجعل هذا مجازا في الاسناد على تشبيه الفاعل غير الحقيقي بالفاعل الحقيقي فهو عنده كاستعارة في التشبيه والعلاقة . . فهو ينظر إلى المجاز في الاسناد من جهة الفاعل غير الحقيقي وأنه على تشبيهه بالفاعل الحقيقي .

● الشهاب الخفاجي واسلوب المجاز العقلي :

جاء في طراز المجالس للشهاب الخفاجي م سنة ١٠٦٩ هـ ما نصه :

قال الأبهري في شرح العضد : الفاعل لا بد أن يكون سببا قابليا لفعله ليصح الاسناد اليه لغة ، فاذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب (١) له يكون الفاعل قابليا (٢) له ، ويكفي في هذا التسبب أن يعد الفاعل سببا قابليا له في عرف العرب وعاداتهم ولا يجب أن يكون محلا له في الحقيقة ، فانهم لا ينظرون في الاسناد الى ذلك ، ويرون جهة الاسناد في نحو : سرتني رؤيتك ومات زيد وضرب عمرو - واحدة من حيث ان الفاعل فيها سبب قابل لأفعاله عادة وإن كان موجدها هو الله حقيقة ، فقول الشيخ عبد القاهر : « الاسناد في سرتني رؤيتك مجاز اذ فاعله في الحقيقة هو الله والمعنى سرتني الله عند رؤيتك ، وفي الآخرين حقيقة » بعيد لأن موجد الضرب أيضا هو الله لما ثبت من قاعدة خلق الأفعال ، وكذا محدث الموت اتفاقا لكن العرب لا يخطر ببالهم عند اسناد الضرب الى عمرو والمسرة للرؤية ان فاعلهما غير المذكور . قال الشهاب ، وهذا كلام دقيق ، ولكن فيه بحث من وجهين :

١ - كيف يتم قوله : اذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب له يكون الفاعل قابليا له ، فانه يقتضي أنه لو أسند الى الموجد الحقيقي كخلق الله السموات والأرض يكون مجازا وهذا يآباه العقل والنقل ، وكون هذا لا بد فيه من التجوز في الفعل أيضا لا وجه له لجواز التجوز في لاسناد ، فما وجه الحصر ؟ .

(١) هو هنا يجعل الاسناد غير حقيقة ، ويؤول المجاز فيجعله في الفعل ، من حيث أول الزمخشري فجعله في الفاعل ، وعبد القاهر والسكاكي والخطيب فجعلوه في الاسناد .

(٢) يرد عبد القاهر في الأبرار على نظرية ان المجاز في الفعل وحده ردا مفصلا .

٢ - كيف يشترط في الاسناد الحقيقي أن يكون الفاعل سببا قابليا ، دائما في اللغة . بناء على أن الفاعل اللغوي غير الفاعل الحقيقي ، مع أن اللغة واستعمال العرب يشهد بخلافه في مواضع كثيرة : منها ما ذكر من الاسناد للموحد ، ومنها أن الفعل يوضع للاعدام الصرفة كفقده وعدم وقد يسند للرجل حقيقة ما يقبله غيره ويقوم به مثل قطف ، وهذا كله يقتضي أن الحقيقة والمجاز . يدوران على اعتبار اللغة ووضوحها .

والذي تحرر عندي وهو ما رد به الابهرى : أن الفاعل الواقع في التخاطب لا سيما في اللسان العربي هو من تلبس بالفعل وقام به أو كان سببا قابليا عاديا في الإثبات ، أو ما هو في حكمه ، وليس هذا على الإطلاق بل إذا كان الشيء موجدا وفاعلا حقيقيا . وكان له أمر آخر قام به أو نسب له على الوجه المذكور فإنه يسند حقيقة إلى الثاني دون الأول ، فإن لم يكن إلا الأول كخلق الله السموات يسند حقيقة إلى الموجد وإنما الكلام ومحل النزاع هو الأول ، ثم السبب القابل ليس المراد به ما هو كذلك حقيقة بل هو وما جرى مجراه ، ولذا عول فيه على عادة العرب في عرف تخاطبهم ، ومن كان له دراية وطلاع أساس البلاغة للعلامة وفقه اللغة للشعالبي وقف على سر هذا (٢٠٤ - ٢٠٦ طراز المجالس) .



● والخلاصة :

أن أسلوب المجاز العقلي قد اختلف فيه العلماء :

١ - فسيبويه ومن تابعه يقولون : هو على تقدير محذوف -
نام ليلي أى نمت فى ليلي *

٢ - وأناس يقولون : المجاز فى الفعل وحده وهو « نام » ...
فهو فيه مجاز لغوى لا غير ، ويرد عبد القاهر هذا رأى ردا مطولا
فى كتابه « الأسرار » .. ولكن الأبهري اتخذ ذلك مذهباً فى شرحه على
العضد ، ورد على ذلك الخفاجى فى « طراز المجالس » *

٣ - وآخرون يقولون : المجاز فى الفاعل وحده وأنه على تشبيهه
بالفاعل الحقيقى ، وعبد القاهر يرد على ذلك ، ولكن الزمخشري يلوح
كلامه باعتقاده هذا رأى ، والسكاكى ذهب إليه وحده ، وجعله مذهباً
له فى التخلص من المجاز العقلي *

٤ - وعبد القاهر يرى أن المجاز فى الاستناد ، وأن تشبيه الفاعل
غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى إنما هو عبارة على العلاقة فى هذا
التجاوز العقلي وأن تقدير المضاف فى أسلوب المجاز العقلي صار
كالشريعة المنسوخة ، فهو غير منظور إليه الآن

ولا شك أن رأى عبد القاهر هو أمثل هذه الآراء فى فهم بلاغة
هذا الأسلوب *

* * *

حول المجاز العقلي

١ - الحقيقة العقلية والمجاز العقلي عند الخطيب من صفة الاستناد
لا الكلام ، حيث قال : « ثم الاستناد منه حقيقة عقلية ومجاز عقلي »
لأن المتصف بالحقيقة والمجاز فى الواقع هو ما تسلط عليه التصرف

العقلى وهو الاسناد ، فاتصاف الكلام بهما بالتبع للأمر العقلى وهو
الاسناد ، واتصاف الاسناد بهما بطريق الأصالة ، فجعل الاسناد
معروضا لهما . * وذلك أولى - لكون ذلك بالأصالة - من جعل الكلام
معروضا لهما لأن ذلك بالتبع ، وكلام الزمخشري يؤيد الخطيب .
أما السكاكى فجعلهما صفتين للكلام حيث قال : « المجاز العقلى هو
الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم الخ » ، والحقيقة العقلية هي
الكلام المفاد به ما عند المتكلم الخ » .

أما كلام عبد القاهر من قوله : « مجاز واقع فى الاثبات » وقوله
« الاضافة فى الاسم كالاسناد فى الفعل » ، فظاهره أن المتصف بذلك
هو الاسناد . ولكن قوله فى حد الحقيقة فى الجملة : « كل جملة وضعتها
على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهو
حقيقة » ، وفى حد المجاز العقلى فيها : « فكل جملة أخرجت الحكم
المفاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأويل فهو مجاز » ، وقوله
« لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز الا بأحد الأمرين » ، كل ذلك
يؤهم أنهما عنده صفتان للكلام لا للاسناد .

ولكن الحق أن عبد القاهر يجعلهما وصفا للاسناد بالذات فاذا
وصف بهما الكلام فباعتبار اشتماله على الاسناد ، فرأيه مؤيد لما
سبق عن الخطيب ، وهذا ظاهر مما نقله ابن الحاجب فى رأى الشيخ
عبد القاهر أيضا ، من أنه يجعلهما وصفا للاسناد ، كما أن ذلك هو رأى
جمهور علماء البلاغة ، ولكن السعد يرى أن عبد القاهر يجعلهما وصفا
للكلام كصاحب المفتاح ، والحق أن السعد فى ذلك قد وهم بظاهر
بعض كلام عبد القاهر ، فالحق أن عبد القاهر يرى أنهما وصفان
للاسناد . ثم قال السعد : « قال الخطيب : وانما اخترنا أنهما صفة
للاسناد لأن نسبة الشئ الذى يسمى حقيقة أو مجازا الى العقل
على هذا لنفسه بلا واسطة وعلى قولهما (عبد القاهر والسكاكى)
لاشتماله على ما ينسب الى العقل أعنى الاسناد ، يعنى الخطيب أن

تسمية الاسناد حقيقة عقلية انما هي باعتبار أنه ثابت في محله ومجازا باعتبار أنه متجاوز اياه والحاكم بذلك هو العقل دون الوضع لأن اسناد كلمة الى كلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضح اللغة . فان ضرب مثلا لا يصير خبرا عن زيد بوضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له واقما الذي يعود الى الواضع أنه لا ثبات الضرب دون الخروج وفي الزمان الماضي دون المستقبل (١) فالاسناد ينسب الى العقل بلا واسطة والكلام ينسب اليه باعتبار أن اسناده منسوب اليه » . فالسعد يثبت هنا أمرين :

١ - أن المجاز في الاسناد عقلى وكذلك الحقيقة في الاسناد عقلية .

٢ - أن المجاز والحقيقة العقلين راجعان الى الاسناد .

فالخلاصة أنهما وصفان للاسناد الا عند السكاكى على أن كلام السكاكى ربما أمكن تأويله ، أفلا تراه يقول : المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل والحقيقة هي الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه فيجعل مناطهما الحكم (وهو الاسناد) ، ويسميه - تبعا لعبد القاهر - أحيانا مجازا حكما ومجازا فى الاثبات ، أفلا يدل ذلك على أن السكاكى يعتبر التجوز انما هو أولا فى الاسناد ، فيكون على هذا وصفا له ، قال السبكي : بل لا يصح من جهة المعنى الا ذلك .

الحق أن جمهور علماء البلاغة على أن المجاز والحقيقة العقلين انما هما وصف للاسناد ، وما يوهمه كلام السكاكى فمؤول ، وتأويل ما يوهمه عبد القاهر فى ذلك أظهر فى باب التأويل اذ لا يحتاج فى تأويله الى دليل .

(١) راجع ٣٥٥ و ٣٥٦ أسرار .

٣ - ذكر الخطيب المجاز العقلي في علم المعاني وذكره
السكاكي في علم البيان . أما حجة الخطيب فهي أن المجاز العقلي داخل
في تعريف علم المعاني لا البيان فكأنه مبني على أنه من الأحوال
المذكورة في تعريف المعاني كالتأكيد والتجريد عن المؤكدات ، فهو من
أحوال اللفظ - بواسطة أنه من أحوال الاسناد - التي بها يطابق اللفظ
مقتضى الحال ، قال السعد : « وفيه نظر لأن علم المعاني إنما يبحث عن
الأحوال المذكورة من حيث أنها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال وظاهر
أن البحث في الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هذه الحيثية - والا
لو كانا من الأحوال المعهودة لذكر المصنف الحال التي تقتضي الحقيقة
والمجاز كما ذكر في غير من المباحث الآتية - فلا يكون داخلا في علم
المعاني والا فالحقيقة والمجاز اللغويان أيضا من أحوال المسند أو
المسند إليه » ، هذا اعتراض قوى من السعد ، تخلص منه بعض العلماء
بحجة واهية وهي أن الخطيب إنما ذكر المجاز والحقيقة العقليين هنا على
طريق الاستطراد لا غير أي لا لمناسبة .

أما حجة السكاكي في ذكرهما في علم البيان فقوية ، قالوا :
لما كان علم البيان موضوعا لبيان ما يعرف به كيفية إيراد المعنى الواحد
بطريق مختلفة في وضوح الدلالة واختلاف الطرق يكون بالحقيقة
والمجازية في الجملة ، أوردهما في علم البيان ، ولكن الخطيب -
كما سبق - راعى أنهما من أحوال الكلام المفيد ، باعتبار عروضهما
لاسناده الذي به صار مفيدا ، والكلام المفيد تراعى فيه المعاني الزائدة
على أصل المراد ليطابق بها الكلام مقتضى الحال ، بخلاف الحقيقة
والمجاز اللغويين فليسا من أحوال الكلام المفيد بل من أحوال أجزاءه ،
والمفيد من حيث أنه مفيد بالاسناد هو المعروف للمعاني الزائدة على
أصل المعنى المراد ليطابق بها مقتضى الحال كما تقدم .

قال ابن يعقوب : لكن يرد على هذا أنهما إنما يكونان من علم
المعاني إن ذكرنا فيه من حيث المطابقة لمقتضى الحال ، ولم يذكرنا فيه

من تلك الجهة والحيثية بل من حيث تفسيرهما وذكر أقسامهما ، وقد
يجاب عن هذا بأن تصور حقيقتيهما يدرك معه بسهولة ما يذكر في علم
المعاني من كيفية الاستعمال للمطابقة لمقتضى الحال لأنه اذا علم أن المجاز
يفيد تأكيد الملازمة علم أنه لا يعدل اليه عند اقتضاء المقام لذلك التأكيد
مثلا فكأنه ذلك ولم يصرح به لوضوحه •

الحق مع السكاكي في عدهما من علم البيان ، وما قيل عن عدهما
في المعاني تكلف محض ، ولا ين السبكي رأى غريب في توجيه حجة
السكاكي في عدهما من البيان ، قال : جعلهما السكاكي في علم البيان
لأنه كان ينكر هذه الحقيقة وهذا المجاز فلذلك ذكرهما ثم •

٣ - المجاز والحقيقة العقلان وصف للاسناد مطلقا سواء
كان خبريا أو انشائيا ولهذا قال الخطيب « ثم الاسناد منه حقيقة
عقلية الخ » فأتى بالاسم الظاهر دون الضمير - وإن كان المحل للضمير
حيث كان السياق أن يقول ثم منه - لئلا يتوهم عوده على الاسناد
المقيد بالخبري في قوله « أحوال الاسناد الخبري ، وارتكاب
الاستخدام في الكلام خلاف الأصل » ، ولا يرد أن المعرفة اذا أعيدت
بلفظ المعرفة كانت عين الأولى فما لزم على الاتيان بالضمير لآزم على
الاتيان بالاسم الظاهر ، ألا نقول ليس هذا كليا بل مقيد بما اذا حلا
عن قرينة المغايرة • ومما يدل على أن المراد الاسناد مطلقا الأمثلة
الآتية من نحو : « يا همام ابن لى صرحا » • وليس المراد خصوص
الخبري كما قد يتوهم من كون البحث في الاسناد الخبري •

والحقيقة والمجاز العقلان يقتضي ذكرهما في الاسناد الخبري
وجعلهما وصفا للاسناد مطلقا - انشائيا كان أو خبريا - اختصاصهما
بالاسناد التام ، لأن الانشاء والاخبار وصفان له • مع أنهما لا يختصان
بالاسناد التام بل يكونان في الاسناد الناقص كما في اسناد المصدر
للفاعل وللمفعول به مثل أعجبنى ضرب زيد وجرى النهر وأعجبنى انبات
الله البقل أو انبات الربيع البقل •

وأجاب الحفيد بأن المراد بالانشائي والخباري الاسناد في الجملة الانشائية والخبارية سواء كان تاما أو ناقصا فتناول ما ذكر ، فالمراد باسناد مطلق النسبة مجازا مرسلا من اطلاق المقيد على المطلق فان الاسناد هو النسبة التامة واستعمل في مطلق النسبة : تامة كالاسنادية أم غير تامة مثل الاضافية والايقاعية . وأجاب المطول بأن المراد بالاسناد أعظم من أن يكون صريحا أو مستلزما .

قال الخطيب : والمجاز العقلي غير مختص بالخبر بل يجرى في الانشاء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لي صرحا » وقوله تعالى : « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا » وقوله تعالى : « ولا يخرجنكم من الجنة فتشقى » . . . وقد سبق الى ذلك السكاكي (١٦٩ المفتاح) .

وقال السعد نقلا عن السكاكي : لما كان تقييده بالمجاز في الاثبات وإيراده في أحوال الاسناد الخبري يوهم اختصاصه بالخبر لأن الاثبات لا يتحقق في الانشاء اذ الاثبات يقابل الأتضاع ، وكل منهما حكم ، ولا حكم في الانشاء لأنه من قبيل التصورات ، قال الخطيب وهو غير مختص بالخبر بل يجرى في الانشاء كما في « يا هامان ابن لي صرحا » أي قصرا عاليا .

فالمجاز العقلي يدخل في الخبر ، ويدخل في الانشاء ويظهر ذلك في دخوله في أنواع الانشاء الآتية :

- ١ - الأمر .
- ٢ - النهي .
- ٣ - الاستفهام عند ابن يعقوب لا السبكي .
- ٤ - أما النداء فلا تقدر على دخول المجاز العقلي فيه كما قال السبكي .

٥ - وأما غير الانشاء الطلبي : فالقسم لا تكاد تقدر عليه كما ذكره السبكي ، والعلاقة في المجاز العقلي في الانشاء كما هي في الخبر ، ففقد تكون السببية مثل ابن لي صرحا أو المكانية مثل ليت النهر جار أو الزمانية مثل ليصم ليلك أو الآلة مثل لتقطع السكين الخ .

٤ - ومما سبق الإشارة إليه في الملاحظة السابقة نعلم أن المجاز العقلي أعم من أن يكون في النسبة الاسنادية أو غيرها ، فكما أن اسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذا إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه ، وإضافة المضاف إلى غير ما حقه أن يضاف إليه ، لأنه جاز موضعه الأصلي ، فالمذكور في الخطيب إما تعريفاً إما تعريف للمجاز العقلي في الاسناد خاصة أو لمطلقه باعتبار أن يجعل الاسناد المذكور في التعريف أعم من أن يدل عليه الكلام بصريحه كما مر أو يكون مستلزماً له كما في : « شقاق بينهما » فإنه جعل البين شقاقاً في الآية ، وكما في « مكر الليل والنهار » حيث جعل الليل والنهار مكرين ، وكما في يا سارق الليلة أهل الدار فإنه جعل الليل مسروقة ، وكما في « ولا تطع أمر المسرفين » ، حيث جعل الأمر مطاعاً ... وكذا فيما جعل فيه الفاعل المجازي تمييزاً كقوله تعالى « أولئك شر مكافاة وأضل سبيلاً » لأن التمييز في الأصل فاعل ، قال السعد : واعلم أن المجاز العقلي قد يدل عليه صريحا كما مر ، وقد يكون كناية كما ذكرنا في قولهم « سل الهموم » أنه من المجاز العقلي حيث جعل الهموم مخزونة بقربة إضافة التسلية إليها ، فافهم ولا تقصر المجاز العقلي على ما يفهم من ظاهر كلام السكاكي والخطيب ، وقال اللسوقي : المجاز العقلي والحقيقة يجريان في الإضافة مثل أعجبنى جرى الماء في النهر وجرى النهر ، وفي الإيقاعية مثل نومت ابني في الليل ونومت الليل أي أوقعت النوم عليه ، فلا تختص الحقيقة والمجاز بالنسبة الاسنادية كما يوهمه كلام الخطيب ، لأنهما كما يجريان في الاسنادية يجريان في الإضافة وهي النسبة الواقعة بين المضاف والمضاف إليه ، وفي الإيقاعية وهي نسبة الفعل للمفعول فإن الفعل المتعدى واقع على المفعول أي متعلق به - ولكن يلاحظ أن ظاهر هذا يقتضي أن الإيقاعية غير تامة مع أن نسبة الفعل للمفعول إنما تعتبر بعد التمام فكان الأولى الاقتصار على الإضافة إلا أن يقال أنهم التفقوا إلى نسبة الفعل للمفعول في حد ذاته بقطع النظر عن نسبته

للفاعل ولا شك أنها غير تامة .. فنحو أعجبنى جرى الأنهار من النسب
الاضافية وهو مجاز عقلى وكذلك أعجبنى انبات الربيع البقل ، فهما
مجازان فى النسبة الاضافية لكن هذا اذا جعلت الاضافة بمعنى اللام
وأما لو جعلت بمعنى فى فلا يكون مجازا بل حقيقة ، فلا بد من النظر
لقصد المتكلم ونفس الأمر فإن كان ما قصده مناسبا بحسب نفس الأمر
فحقيقة والا فمجاز .. ومجرد مناسبة نوع من الاضافة لا يقتضى
أن تكون حقيقة ما لم يقصده .

هـ - حديث المجاز العقلى أنه تجوز فى الاسناد كما قال
الخطيب أو تجوز فى النسبة أعم من أن تكون اسنادا أو اضافة
أو ايقاعا مصرحا بها أو مكنية عنها كما رأى السعد ، فما الحكم
إذا فى :

(أ) وصف الفاعل أو المفعول بالمصدر نحو رجل عدل ، فانما
هى اقبال .

(ب) وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه مثل الكتاب الحكيم
والأسلوب الحكيم ، فإن المبني للفاعل قد أسند الى المفعول لكن لا الى
المفعول الذى يلابسه ذلك المسند بل فعل آخر من أفعاله مثل
أنشأت الكتاب .. فإن كلامه ظاهر فى أن المفعول الذى يكون الاسناد
اليه مجازا يجب أن يكون بما يلابسه ذلك المسند .. وكذا ما أسند
الى المصدر الذى يلابسه فعل آخر من أفعال فاعله نحو الضلال
البعيد فإن البعيد إنما هو الضلال وكذا العذاب الأليم فالأليم هو
المعذب فيوصف به فعله مثل جد جده ، كذا فى الكشف وظاهر أن هذا
المصدر مما يلابسه ذلك المسند .

أما الجواب عن الأول فقد قالوا : انه ليس بحقيقة ولا مجاز ،
لأنه أسناد الى المبتدأ - والاسناد اليه ليس بحقيقة ولا مجاز عند
الخطيب - هذا بعيد ، والحق أنه مجاز ، كما ذهب اليه عبد القاهر

ومن سبقه ، وكما يمليه الذوق السليم ، قال عبد القاهر فى الدلائل :
« لم ترد بالاقبال والادبار غير معناهما حتى يكون المجاز فى الكلمة
وانما المجاز فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر كأنها تجسمت من
الاقبال والادبار ، فليس المراد تشبيهها بالاقبال حتى يكون تشبيها بليغا ،
ولا المراد ذات اقبال ولو كان صحيح المعنى ، لأن ذلك يفيت المبالغة
المقصودة للشاعر وهى كونها لكثرة وقوع الاقبال والادبار منها صارت
نفس كل منهما » .

وأما الجواب عن الثانى فهو أن الملابس أعم من أن تكون
بواسطة حرف أو بدونها ، وهذه الصور من قبيل الأول لأن المعنى هو حكيم
فى أسلوبه وكتابه وبعيد فى ضلاله وأليم فى عذابه فيكون مما بنى للفاعل
وأسند الى المفعول بواسطة ، فهو داخل فى المفعول ليكون اسناد
ما للفاعل له مجازا لأنه لا يتوصل اليه ذلك المسند الا بحرف
فالمراد بالمفعول ما يتوصل اليه فعل الفاعل بنفسه أو بحرف ، فهو مجاز
عقلى علاقته المفعولية . فالخلاصة أن الاسناد فى :

(أ) الانسان حيوان ليس بحقيقة ولا مجاز عند الخطيب .

(ب) هى اقبال وادبار مجاز عند عبد القاهر والسكاكى وعند
السعد .

(ج) كتاب حكيم رده السعد الى المجاز .

(د) نام ليلى أو ليلى نائم الاسناد فيه مجاز قطعا عند الجميع .

فالخطيب أخرج الاسناد الذى بين المبتدأ والخبر عن أن يكون
حقيقة أو مجازا ، ولذلك قال ثم الاسناد منه حقيقة ومنه مجاز ولم يقل
اما حقيقة واما مجاز ، وذلك لأن المتبادر من هذه العبارة فى تقاسيم
الأشياء هو الانفصال الحقيقى (مانعة جمع وخلو معا) أو المانع من
الخلو إذ بأحدهما تصير الأقسام مضبوطة ، دوان المانع من الجمع إذ لا

يعلم به عدة الأقسام قطعاً ، فلو أوردت هنا لدلت على انحصار الاسناد في الحقيقة والمجاز والمصنف لا يقول به .

قال السبكي : قال الخطيب : اسناد ما ليس فعلاً ولا متصلاً به لا يسمى حقيقة ولا مجازاً مثل الانسان جسم ، وليس كما قال بل كل خبر فيه الاسناد وما ذكر يؤدي الى نفى الاسناد لأن من أثبت الحقيقة والمجاز العقليين فتقسيمه الاسناد اليهما منفصلة حقيقة مانعة جمع وخلو فكل اسناد ليس حقيقة ولا مجازاً لا وجود له ، ومن وقف على حدى الاسناد الحقيقي والمجازي عرف ذلك ، ثم نقول : الانسان جسم فيه معنى الفعل باعتبار رجوعه الى الاسناد المعنوي كما قدروا في زيد أسد جرى ، وكذلك يقدر في الجميع .

هذا ويجعل ابن قتيبة مثل نبت البقل وطالت الشجرة من المجاز ، ومثل قوله في الغرابة كلام صاحب الذريعة من أنه ينفي المجاز العقلي كافة ، قال السبكي : وهما قولان غريبان آخذان بطرفي الافراط والتفريط والحق بينهما .

وقال الدسوقي : الظاهرية يزعمون عدم وقوع المجاز العقلي في القرآن كاللغوي لا يهمل المجاز الكذب والقرآن منزّه عنه . . . والرت عليهم أنه لا يهمل مع القرينة .

وقال ابن السبكي : في أثبت الربيع البقل اذا لم يكن من كافر ولا كذبا أقوال :

- (أ) المجاز لغوي في أثبت وهو رأى ابن الحاجب .
- (ب) المجاز لغوي في الربيع وهو رأى السكاكي .
- (ج) المجاز عقلي في الاسناد وهذا رأى عبد القاهر والمصنف .
- (د) أنه تمثيل فلا مجاز فيه لا في الاسناد ولا في الافراد بل هو كلام أورد ليتصور معناه فينتقل الذهن فيه الى اثبات الله تعالى وهو اختيار الامام فخر الدين . انتهى كلام السبكي ، ونضيف اليه رأياً خامساً وهو أنه حقيقة ، وهو رأى صاحب الذريعة .

* * *

نشأة البيان العربي

١ - كان للعرب في حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، كانوا بهما في غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل الأحكام النقد والأصول البيان العربي ومذاهبه ، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقريب .

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر ، وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون في صبر وعزيمة في وضع أصول النحو العربي ، وجمع مواد اللغة العزيزة . . . وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربي وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربي ، وظل التقدم الفكري والنضوج الأدبي والعلمي يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة . . . وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

(أ) الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية^(١) ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والاختباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه^(٢) . . . وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء^(٣) وغيرهم من الخطباء وزجال الأدب الذين تشققوا بالثقافة العربية .

(١) ١/٢٠٩ البيان .

(٢) ٣/٢٢٤ البيان .

(٣) ١/٥٤ البيان .

(ب) والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما أمثل طريقة في البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا سوقيا^(١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم^(٢) ، وحكم مذهبهم في النقد^(٣) ، ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء^(٤) وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية ، مما كان له أثره في فهم أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة إلى آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلحن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشدة الأدب ، كما ترى في محاضرة بشر بن المعتز المقتزى م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة^(٥) ، والتي يقول الجاحظ عنها إن بشرا مر بأبراهيم بن جبلة بن مخزومة^(٦) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتتميقه في أصول البلاغة وعناصر البيان^(٧) ، ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ^(٨) وابن المقفع وسهل ابن هرون^(٩) والحسن والفضل^(١٠) ابنا سهل ويحيى البرمكي وأخوه

-
- (١) ١/١٠٥ البيان .
 (٢) ٣/٢٢٥ البيان .
 (٣) ١/٢٤٠ البيان .
 (٤) ١/١٠٦ البيان .
 (٥) ١/١٠٤ وما بعدها البيان ، ٢٢٨ وما بعدها صناعيتين .
 (٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .
 (٧) ولبشر كتاب في نظم كليله ودمنة .
 (٨) ١/١٥١ البيان .
 (٩) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١/١٤٤)
 البيان ، ٣/٣٢ العقد .
 (١٠) ذكر الحصري كثيرا من بلاغته (١٦ - ١٩ ج ٢ زهر) .

جعفر^(١) وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمر بن مسعدة^(٢)
وابن الزيات وسواهم .

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغه الكلام . .
ونستطيع أن نعرف آثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع
إلى آرائهم المبثوثة في شتى أصول الأدب ، والتي يمكننا أن نذكر لك
هنا طرفاً منها ، وإن شئت فقرأ جواب صبحار لمعاوية حين سأل عنه
البلاغة^(٣) ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حممة بن
رافع من أبلغ الناس ؟ . فقال ، من حلّى المعنى المزيّن باللفظ الوجيز
وطبق المفضل قبل التحزين^(٤) وقرأ تحديد المفضل الضبي للإيجاز^(٥) ،
وتفسير ابن المقفع للبلاغة^(٦) ، وجوار الشمري لعمر بن عبيد في
البلاغة^(٧) ، وتعريف الأصمعي للبليغ^(٨) ، ورأى إبراهيم بن محمد
في البلاغة^(٩) ، وتعريف جعفر البرمكي للبيان^(١٠) ، وتعريف العتابي
للبلاغة^(١١) ، وتفضيل الجاحظ لرأيه^(١٢) ، وصف الرشيد للبلاغة^(١٣) ،
ورأى شبيب بن شيبه في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية على جودة
الابتداء^(١٤) ، ووصف ابن المقفع كلام الأعراب^(١٥) ، الذين أعجب

(١) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥ و ١/٩١ البيان ، ٢/٨١ زهر)
وكان يؤثر الإيجاز (١/٨١ البيان ، ١/١٧٧ الكامل) ، ونوه به
سهل بن هرون (٢/١١ زهر) .

(٢) نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

(٣) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل .

(٤) ١/٢١٦ العمدة ، ٢/٢٨٠ الآمالى للقالى .

(٥) ١/٨١ البيان .

(٦) ٩١ البيان ، ١/٢١٤ العمدة ، ١٥ - ١٧ صناعتين .

(٧) ١/٩٠ البيان ، ١/١٤٢ زهر ، ٤٧ الرسالة العذراء .

(٨) ١/٨٦ البيان ، ١/٢٢٠ العمدة .

(٩) ١/٧٥ البيان .

(١٠) ١/٨٥ البيان ، ٤٢ - ٤٧ صناعتين .

(١١) ١/٩٠ ، و ١/١٥٧ البيان .

(١٢) ١/١٢١ البيان .

(١٣) ٣/٢٦٤ زهر .

(١٤) ١/٨٩ البيان . (١٥) ٢/١١٨ زهر .

الجاحظ ببلاغهم^(١) ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبي تمام^(٢) ،
وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجيل
الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يعتمد الغريب الوحشي
ولا الساقط السوقي^(٣) ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام
ما لا يحتاج الى الكلام الخ^(٤) ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقريب من
المعنى البعيد أو التباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير ،
وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء
بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ،
وعرفها ابراهيم الامام : بأنها الجزالة والاصابة وعرفها ابن المقفع :
بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، الى غير ذلك من شتى هذه
التحديدات^(٥) ، ويقول أبو داود الأيادي : رأس الخطابة الطبع
وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الاعراب^(٦) الخ ،
ويقول الخليل : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة فإن استطعت
أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها
وموارده لمصادره موازنة فافعل واحرص أن تكون لكلامك متبها وإن
ظرف^(٧) ، ووصية أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب^(٨) ، ويقول
عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ : البلاغة معرفة رفق الكلام وفنقه^(٩) ،
وقال ابن الرومي : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند
الأصالة^(١٠) ، ويقول البحتري : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل^(١١) ،

-
- (١) ١/١١٠ البيان .
(٢) ٣/٢٦٣ زهر .
(٣) ٤٢٣ صناعيتين .
(٤) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء .
(٥) راجع : ٤٤ - ٤٦ الرسالة العذراء ، ١/٧٥ البيان ، ٢ و ٣
و ٢٢ ، ٣/٢٣ العقد ، ١٤٠ - ١/١٥٠ زهر ، ٨٧ - ٢/٩١ - بيان المعاني ،
١٠٩ ، ٢٠٢ أعجاز القرآن ، ٢١٣ - ١/٢٢١ العمدة .
(٦) ١/١٤٧ زهر ، ١/٥١ البيان .
(٧) ٤٨ الرسالة العذراء .
(٨) ١/١٥١ زهر .
(٩) ٣/١٦٨ البيان .
(١٠) ٤١ الصناعتين .
(١١) ١/٣٦ المستطرف .

ويقول الثعالبي بعد : خير الكلام ما قل وجل ولم يمل^(١) ، ويقول ابن الأعرابي : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير^(٢) .

(جـ) وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة المفكرين والمثقفين الذين تتقنوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى ، وترجموا آرائهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتباً تبحث في هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيراً واضحاً كبيراً ، يمكننا أن نذكر شيئاً عن مجهود هذه الطبقة في خدمة البيان :

أهم عمل علمي قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ، فأما الخطابة فهو أصل البلاغة ودراساتها ، وقد « أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله إبراهيم بن عبد الله وفسره الفارابي م ٣٣٩ هـ »^(٣) ، وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندي م ٢٥٣ هـ ، ونقله يحيى بن عدي ومتى في القرن الرابع من السريانية إلى العربية^(٤) وقد ألفوا في صناعة الشعر ، وللكندي رسالة في صناعة الشعر^(٥) ، والأبى زيد البلخي كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضاً^(٦) ، وكذلك الأبى هفان^(٧) .

(١) ١/٢١٨ العمدة . (٢) ١/٢١٧ العمدة .

(٣) ٣٤٩ فهرست .

(٤) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، وتجد تحليلاً كاملاً للكتاب في (٦٤ - ١٣٦ قواعد النقد الأدبي) ، وهو لم يصل إلينا كاملاً وليس من شك في أن للكتاب جزءاً ثانياً فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون رداً على أفلاطون في رأيه الذي ذهب إليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشري وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول أرسطو في أوله : « سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفي البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ المرجع) ، وترجمة ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر) .

(٦) ١٩٨ فهرست .

(٥) ٣٥٩ فهرست .

(٧) ٢٠٧ فهرست .

وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة فى البلاغة وعناصرها وهى متفرقة فى شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد فى البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومى بأنها وضوح الدلالة واتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وعرفها الفارسى بأنها معرفة الوصل من الفصل ، وعرفها الهندى بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ، وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ، ويعرفها جالينوس بأنها إيضاح المفصل وفك المشكل ، واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند^(١) ، ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد^(٢) ، ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق^(٣) ، ويقسمها الكندى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحدها^(٤) ، ويقول : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى^(٥) ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام وردائله فقال : فضائله أن يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به فى حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، وردائله بالضد^(٦) الخ ، وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشئ وسؤالك عن الشئ وأمرك بالشئ وخبرك عنه ، فاذا طلبت فأسجخ واذا سألت فأوضح واذا أمرت فأحكم واذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد فى القليل^(٧) ، ولعل ثعلبا حين ذكر فى صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار^(٨) قد تأثر بذلك الرأى .

(١) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠ - ٣٨ صناعيتين ، ١/١٤٤ زهر .

(٢) ٢/٨٨ البيان والتبيين .

(٣) أصول النقد الأدبى للشايب .

(٤) ١/٢١٩ العمدة . (٥) ١/٣٥ المستطرف .

(٦) ١٨٣ ، الموازنة . (٧) ١٠ أدب الكاتب .

(٨) ص ١١ قواعد الشعر .

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات في خدمة البيان ، ولها جميعا
أثرها في نشأته وتطوره .

٢ - ومن الكتب الأولى التي ألقت في دراسات البيان موضوعاته :
مجاز القرآن لأبي عبيدة ، وكتاب البيان لابن السكيت^(١) وكتاب
الفصاحة للدينوري^(٢) ، وكتاب التشبيه والتشيل للفضل بن فويخت^(٣) ،
وصناعة الكلام للجاحظ^(٤) ، وكتاب التمثيل له^(٥) ، ونظم القرآن
أيضا^(٦) وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد^(٧) ، وللحراني كتاب في
البلاغة^(٨) ، ولشعلب قواعد الشعر ، ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل
الى صناعة الشعر^(٩) ، وللمروزي كتاب البلاغة والخطابة^(١٠) ،
ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس^(١١) ، ولأبي سعيد الأصفهاني
كتاب تهذيب الفصاحة^(١٢) ، وللباحث كتاب صناعة البلاغة^(١٣)
ولمحمد بن يزيد الراسطي المعتزلي م ٣٠٦ هـ كتاب اعجاز القرآن في
نظمه وتأليفه ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن^(١٤) وكذلك لابن أبي داود
م ٣١٦ هـ^(١٥) وللحسن بن جعفر كتاب في الرد على من نفى المجاز
في القرآن^(١٦) .

٣ - وبعد فقد كان البيان العربي في القرن الثالث مريحا من

(١) ١/٢٠٨ كشف الظنون ، وقد يكون في هذا الكتاب عرض للأدب
والوانه كالبيان والتبيين .

(٢) ١١٦ فهرست .

(٣) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسي خدم المنصور والمهدي .

(٤) ٢٨ الجاحظ لمردم .

(٥) ٤١ المرجع ، ٦/٧٩ معجم الادباء .

(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم .

(٧) ٨٨ فهرست ، ٧/١٤٤ معجم الادباء .

(٨) ١٧٨ فهرست .

(٩) ٢٦ بغية الوعاة .

(١٠) ٢١٥ فهرست .

(١١) ١٩٧ فهرست .

(١٢) ٣٢٤ فهرست .

(١٣) ٥٢ ألفه فهرست .

(١٤) ٥٧ و ٥٨ فهرست .

(١٥) ٥٢ ألفه فهرست .

(١٦) فهرست أيضا .

ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية مؤلفة ومترجمة ، من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خالصا . وهنا سؤالان لا بد من الجواب عليهما وهما : متى نشأ البيان العربي ، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة . فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربي حقا^(١) ، ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده^(٢) . وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدا من القرآن^(٣) ، وينقد باحث هذا الرأي^(٤) . . . ومن الضروري أن نفرق بين أمرين ، نطق العرب في آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب وفواحيها البلاغية ، فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده ، والثاني لم يوجد إلا في القرن الثالث الهجري كما ذهب إليه أكثر الباحثين ، فقواعد البلاغة قد سننها الفكر أولا ليجري عليها الأدب بل إن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أو لم تبحث^(٥) ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثاني الهجري ، « فعلم البلاغة إسلامي لا عهد للجاهليين به »^(٦) ، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي إنما هي دراسة متأخرة في نشأتها على أنه لا شك كان هناك في العصر

(١) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النشر .

(٢) ١/٤٨ النشر الفني ، ومن قبل رأى صاحبى أن النحو والعروض

نشأ من قديم (٨ وما بعدها صاحبى) .

(٣) ١/٥٦ النشر الفني .

(٤) ١٦ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٥) ٨ قواعد النقد الأدبي .

(٦) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية .

الجاهلي وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها^(١) ، وهذا كله مما لا سبيل الى الشك فيه .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية في نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية « فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحتري ولا المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد » ، ثم ينفى أن يكون هو قد تأثر في رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجعله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا^(٢) ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي^(٣) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان^(٤) ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطوره جلهم من الأعاجم^(٥) وأن متكلمي المعتزلة كانوا بتضلعمهم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي^(٦) وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد الا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفارسي واليوناني ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحت ، ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو ، على أن البيان العربي الصرف قد تأثر باليوناني^(٧) . وترجم كتاب الخطابة في النصف الثاني من القرن

(١) ص ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب

(٢) ٢٠ المثل السائر . (٣) ١/١٧٧ ضحى الاسلام .

(٤) ٣١ مقدمة نقد النثر .

(٥) ص ٦ المرجع نفسه . (٦) نفس المرجع .

(٧) ١١ وما بعدها نفس المرجع .

الثالث ، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي وكان يجهل كتاب الشعر^(١) وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق^(٢) ، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأى الدكتور يظهر أول مرة في « نقد الشعر »^(٣) ثم في « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة^(٤) .

على أننا قد بسطنا القول فى ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان العربى وأنشأه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول الى البيان اليونانى فأخذوا يدأبون على الافادة منه فى بحوث البيان العربى ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم فى دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربى والتأليف فيه .

٤ - ونحن الآن نعرض عليك خلاصة وافية لأهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث والتى ألفت فيها خاصة .

١ - جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى : وفى مقدمتها نجد آراء متفرقة فى البلاغة والبيان ، فهو يعرف الالتفات ويشير الى أن العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب^(٥) ، ويعرف مجاز الحذف ويفيض فى شرحه^(٦) .

(ب) الجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » :

والجاحظ امام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد ،

(١) ١٧ المرجع . (٢) ١٦ المرجع .

(٣) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر

(٤) ١٧ وما بعدها المرجع .

(٥) ص ٣ جمهرة أشعار العرب . (٦) ص ٢ المرجع .

وهو من أئمة المعتزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره
فخرج واسع الثقافة عميق التفكير كثير الاحاطة والاطلاع على شتى
المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات الى العربية .

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق
المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية^(١) ، كما أنه حذق
الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع في الثقافات كلها
بما كان يقرأه من الكتب^(٢) ، وتأثر بخطابه أرسطو الى حد بعيد
ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس
المضمر وهو المذهب الكلامي عند البديعيين^(٣) ، وتقد الجاحظ التراجم
والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق بأنه في أسلوب سقيم ،
فالجاحظ ولا شك قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو كثيرا^(٤) . وأفكر
باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابه أرسطو أو صدى له
لأن الجاحظ لم يره^(٥) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين^(٦) .

ومن البدهي أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية ، ففي البخلاء يحكى
الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق :
لو خرجت من جلدك لم أعرفك ، قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام
بالفارسية « كراز پوستت باروان بیائی شناسیم »^(٧) :

-
- (١) ١/٤٠١ ضحى الاسلام . (٢) ١/٣٨٧ المرجع .
(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في
اسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابه
(٣/١٥ البيان) فليس ذلك الا في مقام الرد على الشعوبيين وقد يكون
الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية اليونان .
(٤) راجع ٦٢١ الرسالة العدد ١٩٦
(٥) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .
(٦) ص ٣ مقدمة نقد النشر .
(٧) ص ١٩ البخلاء .

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه « البيان » ،
 أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا في الحيوان وفي كتابه البيان^(١) ،
 قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل برأى
 لأرسطو^(٢) وكان مصدرا كبيرا له في كتابه « الحيوان » ، والجاحظ
 يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيرا^(٣) ويذكر صاحب المنطق وأنه
 كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه
 وبخصائصه^(٤) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها
 اليونان^(٥) ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا
 للتفكير^(٦) ، ويذكر فوادر ريسموس اليوناني^(٧) ويرى أن لليونان
 فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر^(٨) ، وأقسام
 الدلالة عند الجاحظ^(٩) هي من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس
 رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها
 وحكمها وكتبها في المنطق وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها
 لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة^(١٠) ، وللجاحظ
 رسالة في نقد الكندي^(١١) .

ويذكر الجاحظ في البيان « صناعة الكلام » ويعنى بها حبا علم
 الكلام^(١٢) ، وحينما آخر البيان^(١٣) ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة
 المنطق^(١٤) وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا « أصحاب الخطابة
 والبلاغة »^(١٥) .

-
- (١) وذلك في مواضع كثيرة . (٢) ١/٦١ البيان .
 (٣) ٦٩ و ١/١٢٨ البيان . (٤) ٣/١٥ البيان .
 (٥) ١/٧٥ البيان . (٦) ٣/٧ البيان .
 (٧) ٢/١٦٥ البيان .
 (٨) ٣/١٥ البيان ، الظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطابتهم .
 (٩) ١/٦٩ البيان ، وهي في ٤. الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .
 (١٠) ٣/٧ البيان . (١١) ٤٢ الجاحظ لمردم .
 (١٢) ١/٦٩ البيان .
 (١٣) ١/١٠٨ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣/٤ زهر) .
 (١٤) ١/٧٩ البيان . (١٥) ١/١٨٣ البيان .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته الى ترك الوحش والسوقي^(١) له نظير عند أرسطو الذي دعا الى « هجر الألفاظ الخسيسة التي لا يستعملها الا العامة^(٢) » وقال « ينبغي ألا تكون الألفاظ سفاسفة ولا مجاوزة الحد في المتانة مبلغ الأمر الذي يدل عليه فلا تبلغ درجة العامة ولا تحوج الى الكلفة المنشوعة » ، ودعوة الجاحظ الى الوضوح^(٣) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الاغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن في الاغرايات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأمثل دون اسقاط الجمهور » ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة^(٤) موجود في خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحاً لا لحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) في مواضعه^(٥) ، والايجاز والاطناب يوم الاطناب^(٦) ، وأرسطو أول من أشار الى ذلك كله فذكر الايجاز والاسهاب وأشار الى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فمرجع هذا التشابه في الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرا عن الذين ألبوا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرا من النظريات التي شرحها أرسطو في كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيفة التي ألم بها

(١) ١٠٥ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان .

(٢) راجع الشفاء لابن سينا وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهي منقولة من الشفاء .

(٣) ٦٨ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان .

(٤) ١/١٢١ البيان .

(٥) ١/٥١ البيان ، ويشير الى ذلك في مواضع أخرى من كتابه ١٤١

و ١٤٧ و ١٦١ و ١/١٨٠ البيان .

(٦) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للايجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب) .

أرسطو^(١) لا يشير إليها الجاحظ في بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على كتابي أرسطو ، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرا ، ونقل عن اطلعوا على خطابة أرسطو ، ويكفي ذلك التحقيق في هذا المقام .

وبعد فللجاحظ في البيان العربي آثار كثيرة : كرسالة في تفضيل النطق على الصمت^(٢) ، وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر في الأدب جامعاً لفنون كثيرة من ضروبه »^(٣) ، ويشيد به أبو هلال^(٤) ، ويعد ابن خلدون من أركان الأدب^(٥) ، والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ويأتي على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام^(٦) ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا^(٧) ، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلاً من تصحيف الجاحظ فيه^(٨) ، وينقد ابن شهيد الكتاب^(٩) ورد عليه بعض المعاصرين^(١٠) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي

(١) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو في الوصل ، وهي التي يفيض عبد القاهر في شرحها في الدلائل . . ونصيب في نقده للكميت في قوله « تكامل فيها الانس والشنب » لأنه باعد في القول (١/١٣٤) الأغاني (١/٣٥٥ الكامل) لا يتم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(٢) تجدها في ١٤٨ - ١٥٤ رسائل الجاحظ .

(٣) ٨٠ العصر العباسي للاسكندري .

(٤) ٦ و ٧ الصناعتين .

(٥) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون . (٦) ٣٥ الجاحظ لمردم .

(٧) ١/٢٢٧ العمدة .

(٨) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف .

(٩) ١/١٩٨ ذخيرة . (١٠) ٢/٥ النشر الفني .

وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة^(١) ، أو كما يصورها بشر بن المعتمر^(٢) ، أو كما يراها ابن المقفع^(٣) ، ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب الى منتصف القرن الثالث يتصورن البيان العربي وتعطينا صورة مجملته لنشأته^(٤) .

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة^(٥) ، ويتكلم على السجع^(٦) ، ويشير الى التفصيل والتقسيم^(٧) ، والاستطراد ، والكناية^(٨) ، والأمثال^(٩) ، والاحتراس^(١٠) والقلب^(١١) والأسلوب الحكيم^(١٢) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامي بهذا الاصطلاح^(١٣) ، ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال : والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى وإنما الشأن فى اقامة الوزن وتحيز اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجوده السبك^(١٤) ، وهو ما ذهب اليه

-
- (١) ١/٧٩ البيان . (٢) ١/١٠٤ وما بعدها البيان . (٣) ١/٩١ البيان . (٤) ٣ مقدمة نقد النثر . (٥) ١/١١٦ البيان . (٦) ١/١٩٤ البيان . (٧) ١/١٧٠ و ٢/٩١ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين . (٨) ١/١٨٠ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٣/٨٥ البيان . (٩) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ و ٢/٢٢٤ البيان . (١٠) ١/١٦١ وما بعدها البيان . (١١) ١/١٨٠ البيان . (١٢) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللفز فى الجواب » (٢/١١٦ البيان) . (١٣) ١٠١ البديع ، ٢/٧٦ العمدة . (١٤) ٣/٤٠ الحيوان .

ابن خلدون^(١) ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئاً مذكوراً . وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى الى ذكره هنا خوفاً من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو اليه كثيراً فى بيانه^(٢) ، وفى الحديث عن رسول الله : اذا قلت فأوجز واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف^(٣) ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه^(٤) .

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف وهو أعظم السابقين الى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل اليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الاحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته فى كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال^(٥) ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان .

(ج) وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء فى مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد فى كامله ، وابراهيم بن المدبر فى الرسالة العذراء ، وثعلب فى قواعد الشعر ، وابن عبد ربه فى العقد ، وسوى هؤلاء مما يطول الحديث او فصلنا القول فيه .

* * *

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون .

(٢) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ٢/١٩٨ البيان .

(٣) ١/٥ الكامل للمبرد .

(٤) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون .

(٥) ٦ الصناعتين .

الجاحظ والبيان العربي

— ١ —

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى في كل أفق ، ويرن صده في سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالا عليه في البلاغة والفصاحة واللسان والعارضة كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ومجدا يدهنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الإسلامية في شتى عصورها ، فالفوا الكتب في الإشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقریظ الجاحظ — ، وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والبيان ، وكان فخر الرجل في أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يجذبون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزي والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن كما فعل الجاحظ مع أحمد ابن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « الترييع والتدوير » . . . وحسبك أن المأمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويشنى عليها ويستجيدها (١) .

(١) ٣/٢١١ البيان نشر السندوبى ط ٩٢٧

ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شيء الا من مجد الأدب ، وشهرة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد إليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل انه حورب فيها من أجله حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، الاخفاق في الحياة العامة الذي منى به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطيء من يذهب الى تقديم الجاحظ على سهل بن هارون ، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضلال وغبنا •

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقديم ابن الزيات وابراهيم بن العباس اما لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمايته وافراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا فذهب الى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل •

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيا كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق اليه فيها شك وريب • وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع الى مجد ينشده أو جاء سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح • وأما أن دماية الجاحظ كان لها أثر في هذا الاخفاق

فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى انه ذكر للمتوكل لتأديب
بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف
درهم •

الحق أن الجاحظ كان عرييا في روحه ودمه وحياته ، وكان
يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ
والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لا سيما الفرس ، وكثيرا
ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب الا من اتصل منهم
بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك
الزيات الوزير م سنة ٢٣٣ هـ ، والذي أهدي له كتابه « الحيوان »
وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك
والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه
الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد
ابن أبي دؤاد الذي سبق اليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب
محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه
وأدبه لا باخلاصه وولائه •

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لا مواهب
رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه
العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه اليه
السياسة مهما خلق في أجوائها ، وكان اخلاص الجاحظ للفكر والثقافة
أعظم من اخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم
يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكأنت لذته في
الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجده السياسة وسلطانها ،
فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي
الذي تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب
مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزلين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب
البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية

الذى وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ - ٢٥٥ هـ - ، وكان له فى صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق كما كان له صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك فضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هياًه لأن يكون محور الثقافة الاسلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمداني فيه من أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف^(١) ، فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يغض ذلك من احسانه فيما أحسن فيه ، ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الاشارات قليل الاستعارات قريب العبارات وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة^(٢) . وانما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات التى مازجت الثقافة الاسلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها احاطة لا تقف عند غاية ، وقد خاض الجاحظ فى جداول الثقافات الأخرى التى سرت فى تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثانى الهجرى ، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا تشك أنها أفادت ذلك من أستاذة النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى البيئة الاسلامية فى عصر الجاحظ . ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ،

(١) ص ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية .

(٢) ص ٨٢ و ٨٣ المرجع .

وتلقيه اللغة من الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة في شتى مناحيها كأبي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة . وأبي زيد الأنصاري ، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان .

وشخصية الجاحظ تطالعك في أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ، وهي شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعتز بنفسه . . . يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم ، فلا ينفي شخصيته في شخصيتهم ، بل يراهم اخوانه ، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخرة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم اليهم ، وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب في جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكائنها ، وتوجيهها الساحر القاريء وفكره وشعوره حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد تقلك من جوه هو الى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا في معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر ، وتبتهت الفكر والعقل ، وقلوب العاطفة والشعور .

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يروونه كاتباً لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه وتبدو أمام عينك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه وفي بحثه وتأليفه ، فإذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب

أو ألف فبأسلوبهم ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضمن بما عنده غيرة على العلم وشجراً بثمره الفهم ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفاً على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا تقع له من كتابه » كما يقول ابن شهيد ، إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات . كما يرى بعض الباحثين المعاصرين^(١) ، وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته في فواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجداً وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

* * *

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار . ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى أنه حمل إلى الأندلس فيما حمل من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال كتابه الشهرة والاعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر

(١) ٢/٤٩ النشر الفني .

والذبيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارئ
واعجابه كما يقول الجاحظ في تعليقه له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه
للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيبا يتشى مع التاريخ يعجزه عن
تنسيق ذلك فان ذلك يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه
انما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله - أو كثيرا
منها - محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا
روحا قوائمه بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من
تقدير وإجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطردى جعل الجاحظ يعدنا في
كتابته بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفنى بوعده ، وهذا الأسلوب
الاستطردى أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه
وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله
يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارئ
بمزيد الالتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب
الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب التي
تعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها الا للتغريب بالقارئ
واكتساب نشاطه وامتناحان ملكاته .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب
وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين
البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه
العميق المحكم ، ورسم فيه صورة صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى
عهده ، والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ
وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لا سيما المعاصرين للجاحظ
ومن سبقوه بقليل ، وقد عني فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من
الأدب العربي : شعره وشره ، وقاده الاستطراد إلى الامام بكثير
من مسائل الأدب والنقد والبيان .

يبدأ الجاحظ كتابه بمقدمة يذكر فيها البيان وشرفه ويلم فيها بالكثير من عيوبه الفطرية وسواها في استطراد جميل ، ثم يشرح البيان ويحلل عناصره ، ويذكر البلاغة ومذاهب رجال البيان فيها ، ويبين الصلة بين البليغ ومظهره ، ذاكرة بلاغه الخطيب وعناصرها وأدواتها ، ملما بالكثير من الخطباء ، داعيا الى قوة الطبع وشرف المعنى وجمال اللفظ والى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، مبينا أثر هذه البلاغة في النفس والوجدان ، ويتكلم على الحديث المردد ومن عابه ومن مدحه ، وعلى الصمت : من أشاد به ومن ذمه داعيا البليغ الى أن لا يتمسك بحكمة الصمت حتى لا يورثه ذلك العي والحصر ، ويدعو الأدباء الناشئين الى أن يعرضوا انتاجهم الأدبي على أولى الذوق والبيان حتى يعرفوا قدر أنفسهم ومنزلتها في البيان ، كما يتحدث عن السجع : مطبوعه ومتكلفه وعن منزلته الأدبية ، محللا عناصر الشعر نافيا أن يكون ما في القرآن من كلمات موزونة شعرا ، ملما بطبقات الشعراء وألقابهم ، وينعى على المتقعرين ، ويسرد أحاديث النوكي والحمقى سردا بليغا ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الكتاب الذى أودع فيه الجاحظ جل ما أورده من بلاغة البيان وعناصرها وألوانها ومذاهبها وأسبابها •

أما الجزء الثانى فتحدث فيه عن الخطابة وأقسامها وأثرها ، وألم فيه بسحر بلاغة رسول الله فى أحاديثه وخطبه ، وبخطب كثير من جلة الصحابة والسلف الأولين ، وتكلم عن الحوليات وطبقات الشعراء ومذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة ، كما تكلم على اللحن واللحنين والنوكى والحمقى والمجانين •

وفى الجزء الثالث يرد على الشعوية مطاعنها التى قدحت بها فى العرب لا سيما ما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام ، ورد الجاحظ على الشعوية فيه كثير من حرارة الايمان التى أذكت فى دفاعه روح الجدل وقوة المناقشة وسعة التفكير • وينقل الجاحظ كثيرا من حكم النساك ومواعظهم ، وخطب الخوارج

وكلماتهم ، وسياسة بنى العباس ودهائهم ، ويتحدث عن رواية الأدب واتجاهات الرواة وطبقاتهم ، وعن كلام رسول الله وسحر إيجازه وبعده عن مذاهب العرب في شعرها ، وعن أمية رسول الله مع بلاغته وعن مجد الشعر وأثره ومكائنه إلى غير ذلك من شتى الآراء ، ويختتم الجاحظ كتابه بهذه الكلمة الجامعة : « وهذا أبقاك آخر ما ألفناه من كتاب البيان والتبيين ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته ، وأردناه من تأليفه ، فإن وقع على الحال التي أردنا والمنزلة التي أملنا فذلك بتوفيق الله ، وإن وقع بخلافها فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حررنا التوفيق والله أعلم » .

وبعد فكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والدوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير .

وأثر « البيان » وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وإفاؤه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم :

فكتاب البيان أصل من أصول الأدب وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تتحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره

وتنميقة الى غير ذلك من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقبلاً
بالتفكير فيها .

واذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية - في كتابه - عن شيوخ
العريضة وأدبائها كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام
وأبي العاصي ، وكابراهيم بن السندی وعبد الكريم بن روح الغفاري
ومحمد بن بشير الشاعر ، وكثامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء ،
فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد
عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » .

فاين قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ تبع في كتابه « الشعر والشعراء »
الجاحظ في مذهبه الأدبي من اثار الطبع والرواق والماء والبعد عن
التكلف والاستكراه والتعقيد .

ومؤلف نقد النشر يبدو في كتابه أثر الجاحظ ، وهو وابن كان نقد
« بيان » الجاحظ في أول كتابه الا أنه قد تأثر به الى حد كبير ، فكلامه
على أنواع البيان ونظره اليه نظرة واسعة أعم من البيان بالعبارة هو
صنيع الجاحظ في كتابه ، ويتكلم على اختيار مواقع الكلام وأوقاته
ومناسبته للسامعين ومطابقة الكلام للمقام^(١) وتلك آراء الجاحظ ،
ويرى أن اللحن يستحسن من الجوارى وأن من الصواب معرفة أوقات
الكلام والسكوت وأقدار الألفاظ والمعاني بأن يلبس المعنى ما يليق به
من اللفظ ، كما يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتساوى فيها المعنى
واللفظ فلا يكون اللفظ الى القلب أسبق من المعنى ولا المعنى أسبق
من اللفظ ، وتلك كلها آراء الجاحظ ، الى غير ذلك من كثير من مظاهر
التأثر والاحتذاء .

وكذلك دعا الآمدى الى المذهب الأدبي الذي دعا اليه الجاحظ
في كتابه البيان .

(١) ٩٦ نقد النشر .

ودعوة أبى الحسن الجرجاني فى وساطته الى ترك التكلف والاسترسال مع الطبع^(١) ، والى تقسيم الألفاظ على رتب المعانى هى دعوة الجاحظ فى بيانه ، وان كانت مظاهر التأثير بالجاحظ تبدو معدومة فى الوساطة .

وأبو هلال العسكري فى « الصناعتين » متأثر بالجاحظ وكثير الافادة منه ومن كتابه « البيان » . وكتاب « الصناعتين » سير فى السبيل الذى عبده الجاحظ واتمام لما بدأ به ، وكثير من آراء الجاحظ نجدناها فى الصناعتين وإن كان للصناعتين ميزة شرحها والتعليق عليها ، وقد ينقلها نفسها ، وقد يستدل بها ، وينقل وصية بشر بن المعتز ويشرحها ، وعلى العموم فالجاحظ هو المرجع الأول لأبى هلال .

وكذلك ابن سنان الخفاجى ينقل فى كتابه « سر الفصاحة » عن الجاحظ كثيرا .

وعبد القاهر الجرجاني شديد التأثر بالجاحظ وكتايبه « الحيوان » « والبيان » ، يأخذ عنه كثيرا من آرائه بدون ذكر له ، وقليل ما يشير اليه ، فكلام عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ ورأيه فى أن فضيلة الكلام لنظمه لا للفظه ولا لمعناه هو روح كلام الجاحظ ، وعبد القاهر ورأيه فى السجع متأثر بالجاحظ ، وبلاغة الألفاظ من أن تكون مألوفة ليست وحشية ولا سوقية دعا اليها الجاحظ قبل عبد القاهر ، وتعريف عبد القاهر للبلاغة هو روح الجاحظ فى بيانه ، وإشاره من الكلام ما كان معناه الى قلبك أسرع من لفظه الى سمعك مما سبقه اليه الجاحظ وينقل عبد القاهر عن الجاحظ كثيرا ، الى غير ذلك من مظاهر التأثير الكثير .

ولكتاب البيان كذلك أثره فى النقد الأدبى فهو سجل حافل للآراء

(١) ٣٠ من كتاب الوساطة .

المختلفة فى النقد مما لا يزال الى الآن موضع البحث والاعجاب ..
والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها
مذهب اللطبعين كان يضع بذلك أساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره
الأدبى .. وعصرنا الحديث يؤمن كل الايمان برأى الجاحظ ويسير
فى تياره الفكرى والأدبى كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته .



— ٣ —

كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، وكانوا بهذا
الطبع وذلك الذوق وفى مثل بيئتهم البدوية فى غنى عن الشرح والتحليل
والتوجيه والتعليل لأحكام النقد الأدبى ولأصول البيان العربى ومذاهبه
واتجاهاته . كانوا يسمعون النص الأدبى فيوحى اليهم طبعهم بكل
شئ ، ويرون من يسمع منهم ويأخذ عنهم فى غنى بذوقه وطبعه
عن كل شئ ، ولذلك بقيت أصول النقد والبيان بعيدة عن البحث
والدراسة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الاسلاميه اختلطت العناصر وتمازجت الثقافات
وتجاورت الطبائع والأذواق ، قسرت العدوى فى البيئة العربية الخالصة ،
وظهرت فى مظهر من اللكنة المستهجنة ومن الخطأ المردود فى اشتقاق
بعض الكلمات العربية وتصريفها وفى اعرابها وأشكال الحرف الواجة لها،
فسرت بين علماء الدين والعربية روح من الجدد والاقدام والعزيمة التى
صممت على تلافى آثار هذه العدوى حتى لا تمس العربية فى صميمها
وفى كتابها المقدس الحكيم ، وظهرت لذلك الدراسات النحوية ثم
اللغوية بمظهر جاد لا وناة فيه . بيد أن ذلك لم يثن رجال الأدب عن
غاياتهم ، ولم يحل بينهم وبين اتجاهاتهم وطبائعهم ، فكثرت النقد الأدبى
ودخلته روح جديدة من البحث والتوجيه والتعليل ، وتكونت من ذلك
أصول أدبية موجزة لها قيمتها فى الأدب والنقد والبيان .
وبعد أن أشبع الفكر الاسلامى رغباته من البحث والدراسة

ففي تقويمهم للسان العربي وتصحيح الملكات العربية في النطق واللهجة ، اتجه رجال العربية - مع مساهمتهم للدراسات العربية واللغوية - الى الدراسات الأدبية والبيانية حرصا على ارضاء ملكاتهم وأذواقهم وتمشيا مع التطور الفكري والترفع العقلي في دراسة العربية وآدابها ، ومسايرة لروح البحث المتجلية في الثقافات الأخرى التي امتزجت بالثقافة الاسلامية ، والتي كان لها الأثر والخطر في اثاره مشكلات الأدب والبيان ، وفي بحث عناصر بلاغة الكلام ، وفي توجيه أذهان الكتاب والأدباء الى المجدي المقبول من الأساليب وطرق الأداء وفي التفكير والمعنى ، وفي مراعاة شتى المقامات وسائر الأحوال التي يجب على الأديب والخطيب والكاظم والشاعر مراعاتها والامام بها . وكانت عناصر الثقافة البيانية والأدبية اذ ذاك تتجلى في طبقتين :

(أ) طبقة رواة الأدب العربي من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يرونه اشباعا لنهم فطرتهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو ابن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية^(١) ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعن الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع الممكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى التي اذا صارت في الصدور عسرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية الا كل شعر فيه اعراب ، والأخباريين الذين لا يقفون الا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يرون الا كل شعر فيه غريب^(٢) . بجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري

(١) ١/٢٠٦ البيان .

(٢) ٣/٢٢٤ البيان .

وأبان اللاحقى ومنصور النسرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى ابن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام^(١) ، وغيرهم من الخطباء ، ورجال الأدب والبيان ، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لا سيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء^(٢) .

(ب) طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا^(٣) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم^(٤) وحكم مذهبهم فى نقد^(٥) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرءوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون الى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخين لهم من شدة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتز المعتزلى م سنة ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخزومة وهو يعلم النقيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال يشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميته فى أصول البلاغة وعناصر البيان^(٦) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك

(٢) ١/١٠٦

(٤) ٣/٣٢٥

(٦) ١/١٠٤

(١) ١/٥٤ البيان .

(٣) ١/١٠٥

(٥) ١/٢٤٠

وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ^(١) ، وعبد الله ابن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى ابن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم الى أرقى المناصب فى الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى توائم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبى السليم ولا يعتمد أصحابها فيها مذاهب العلماء فى الشرح والتحليل .

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية تفيض سحرا وقوة وروعة ، سواء فى خطب الخطباء وشعر الشعراء ورسائل الكتاب ومحاضرات المحاضرين وجدل المجادلين . كما ظهر وعناصر البيان العربى تكاد تخطو فى طفولتها نحو الغاية وتسير فى هدى العلم والذوق الى منزلتها من الوضوح والتمايز والاستقلال ، فدخل الجاحظ المعسعة وتوسط الميدان وسار أنبه أبطاله المعلمين . . أما الجاحظ فى بلاغة بيانه وجلاله أسلوبه وحلاوة منطقته واستقلاله بمذهب خاص فى الكتابة والبيان فهو فى ذلك ليس له نظير ولا ينكر عليه أحد ، ويحق ما وسم بشيخ الكتاب . . وأما الجاحظ فى وضع أسس البيان وعناصر البلاغة العربية فهذا ما نريد أن نعرف أثره فيه .

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر ، بالكتابة - فى كتبه - فى شتى بحوثه وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه ، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ ، كما كان كل ما هناك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة

منتهاها ، وما نجد في الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبي عبيدة
والشعر والشعراء لابن سلام فانما هو قليل من كثير اذا قيس بما
جمعه الجاحظ في كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر
حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بعنايه العام بالتأليف
في كتابه الكبير « البيان والتبيين » ، وثانيهما أن له فضل جمع مختلف
الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار
والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة
بها ، واذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما « الحيوان » و « البيان »
عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل . ومن الغريب أن ترى شخصية
الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يتكره من آراء ومذاهب
بعكس كثير من العلماء والباحثين .

والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في
مذاهبها وعناصرهما في كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء
ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها
بشخصيته واستمدتها من عقليته وثقافته وعرفت له وحده دون سواه
من الباحثين في البيان العربي وقواعده ، وقبل أن نفصل ذلك كله
تساءل : ما هو البيان الذي نريده ويعنيه الجاحظ في كتابه « البيان
والتبيين » ؟

لا شك أن الجاحظ لم يعن بالبيان ذكر قواعد البلاغة العربية
وأدائها في ألفاظها وأساليبها ومعانيها كما فهم مؤلف نقد النثر ونقد
على ضوءه الجاحظ في كتابه البيان حيث يقول : « أما بعد فانك ذكرت
لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذي « سماه البيان
والتبيين » وأنت انما وجدته قد ذكر فيه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة
ولم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان ،

وكان عندما وقعت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب^(١) اليه .

ولا شك أن أبا هلال العسكري كان أدنى إلى الانصاف حينما فوه في كتابه الصناعتين بكتاب « البيان » وذكر خطورته كمؤلف من مؤلفات البيان العربي ، وإن كانت أبحاثه في البيان موجزة مفرقة^(٢) ، فهو بدون شك ومهما أردنا بكلمة البيان من معان مؤلف من مؤلفات البيان ، ولا يضيرنا بعد ذلك إن كانت بحوثه في البيان مجملة أو مفصلة مجموعة أو مفرقة ، ونحن على كل حال في الرأي مع أبي هلال .

ولا شك أيضا أن ابن شهيد حين ذهب إلى أن كتاب « البيان للجاحظ » لم يكشف فيه مؤلفه عن وجه تعليم البيان ليري القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان وكيف يكون التوصل إلى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأن الجاحظ استمسك بفائده وضمن بما عنده غيره على العلم وشجعا بشرة الفهم^(٣) قد ظلم الجاحظ وكتابه وحكم عليه حكمه متأثرا باتجاهه هو في البيان الذي انتحى فيه ناحية تطبيقية حتى كان كما يقول يعلم الشحاذ الأساليب التي يستدر بها عطف الناس^(٤) . فابن شهيد حين أراد أن يكون كتاب « البيان » كتابا يرسم فيه مؤلفه طرق الأداء ويعبد سبل التعبير عن مختلف الأغراض التي تؤثر في عقول الناس وعواطفهم ، قد ظلم الجاحظ مرتين : ظلمه حين تناسى ما كتبه وما جمعه الجاحظ في رسم المذاهب الأدبية المختارة في الأداء والتعبير ، وظلمه مرة أخرى حين حكم فيه اتجاهه هو ونقده على ضوئه وقاس كتابه بمقياسه .

وعلى كل فالجاحظ إنما أراد بالبيان ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته^(٥) ، وأرد

(١) ص ١ نقد النشر . (٢) ٦ و ٧ الصناعتين .

(٣) الزوابع والتوابع ، والذخيرة .

(٤) الذخيرة . (٥) ١/٦٨ البيان .

ما أراد جعفر بن يحيى من البيان ، وهو أن يكون الاسم يحيط بمعناه ويجلى عن مغزائه وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لابد منه أن يكون سليما عن التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل^(١) ، أراد به ساحر الأدب ورائعه من ثمر ونظم وأسجاع ورسائل وخطب ومقالات وأحاديث وحجاج ، وأراد به أمثل الأساليب وأقوم الألفاظ التى تقرب ما غمض من المعنى وتوضح ما خفى من الأفكار ، ذاكرة معها أصحابها من أولى اللسن والخطابة والبلاغة فى المنشور والمنظوم ، ولذلك كان كتابه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة كما يقول مؤلف نقد النشر ، والجاحظ لا يكتفى بذكر ذلك وحده بل يذكر المذاهب الأدبية العامة فى عصره وقبل عصره فى النقد والأدب والبيان كلما دعا إليها داع أو ألت بها مناسبة ، ويذكر فى سياق ذلك آراءه الأدبية التى يؤثرها ويدعو إليها فى شىء من الإجمال والإيجاز وفى مواضع متفرقة من كتابه كما يقول أبو هلال .

* * *

— ٤ —

ارتاب بعض الباحثين المعاصرين فى شخصية الجاحظ فى كتابه البيان ، ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه^(٢) . وهذا موضع مناقشة هذه الفكرة الجائرة .

ان من يمعن فى كتاب « البيان » يؤمن معى إيمانا جازما بمدى ما فى هذا رأى من جور على الجاحظ وغيبته لكتابه ، فشخصية الجاحظ فى كتابه البيان ليست معدومة ولا ضعيفة ، بل تراها قوية مهيمنة ونلمسها فى ثناياه فى مظاهر متنوعة :

فهى فيما يذكره الجاحظ من أدب ورواية ، وفيما يسرده من آراء رجال البيان العربى فى البلاغة وعصرها ومذاهبها ، ويكفى لظهورها

(١) ٨٥ و ١/٨٦ البيان . (٢) ص ٧ مقدمة نقد النشر .

في هذا المظهر صيغ شخصية الجاحظ لهذه الروايات بصيغته ، وهضم
حقيقته لها واخراجها في أسلوبه الساحر ، وفي استطراده الفاتن
الحبيب ، وفي سعة تامة واحاطة كبيرة باللغة والأدب والبيان .

وهي في تعليقه على هذه الروايات والآراء ، وفي نقده لها وحكمه
عليها ، ولن نحصى من ذلك نقده للآراء العامة في الأدب وما يتصل به ،
وما فراه في تعليقه على رأى الأهم في الأحنف بن قيس^(١) ، وفي
موافقته لرأى أياس في حمد اعجاب الرجل بقوله^(٢) ، وفي تعليقه
على الحكمة القائلة : قيمة كل امرئ ما يحسنه^(٣) ، وفي ثنائه على
كلمة بلينة لـ محمد بن علي^(٤) ، وفي نقده لرأى في تعليل تهيب عمر في
خطبة النكاح^(٥) ، وفي مناقشته لكلمة عن ابن الزبير^(٦) ، وفي نقده
لمن يستعصم المعلمين ورعاة الغنم^(٧) ، وفي نقده لرأى من يضع
الحبشة مع الأمم العريقة في الثقافة^(٨) ، وفي نقده رواية خطبة رويت
لـ معاوية^(٩) الى آخر ما فيه من التعليق والنقد في هذا الباب . انما نريد
نقده لما يتصل بالبيان من آراء ومذاهب تمس صميم البلاغة
العربية ، ولا بأس أن نعد بعض هذه التعليقات والنقود .

أنشد خلف الأحمر الجاحظ :

وبعض قريض القوم أولاد علة يكبد لسان الناطق المتحفظ

فعلق الجاحظ على هذا البيت تعليقا جميلا ، فالشعر « اذا كان
مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض
كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ... وأجود الشعر ما رأيت
مقلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ افراغا جيدا

(٢) ١/٨٢

(٤) ١/٧٤

(٦) ١/١٩٢

(٨) ١/١٤٣

(١) ١/٥٨ ، ٥٧

(٣) ١/٧٣

(٥) ١/٩٢

(٧) ١/١٧٤

(٩) ٢/٥٧

وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على
الأذهان (١) » وذلك تقرير لبلاغة الألفاظ والنظم ولتنافر الحروف
والكلمات سبق إليه الجاحظ عبد القاهر وشيخته والسكاكي
ومدرسته بقروائهم *

ويرى بليغ أن بلاغة الكلام في أن يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ،
فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك ، والجاحظ يشي
على هذا الرأي ويحججه (٢) *

ويرى ابن المقفع أنه يجب أن يكون في صدر كلامك دليل على
حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره
عرفت قافيته (١/٩١ بيان) ، فيشرح ذلك الجاحظ ويدلي برأيه فيه (٣) ،
مقررًا بلاغة الاستهلاك تقريرًا ليس بعده من غرابة *

والجاحظ جد معجب ببلاغة الكتاب ، يتجلى ذلك في نقده لمذهبهم
الأدبي في الكتابة والبيان (٤) : ، وهو يرى أن حديث الأعراب
الفصحاء بالغ الغاية في الامتاع ، وليس أفتق للسان ولا أجود تقريبًا
للبيان (٥) منه ، كما يعجب ببلاغة المتكلمين والنظارين ويراهم فوق
أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٦) *

وذكر الجاحظ رأى إبراهيم بن محمد في البلاغة وأنه يكفي من
حفظها ألا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا الناطق من سوء
فهم السامع ، ثم أشاد به وأثنى عليه (١/٧٥) *

واختلف علماء البيان في الخطابة وهل يستجاد فيها الإشارة
والحركة ؟ فذهب النظام إلى استجادتها ، وجعلها رجل كأبي شمر

(٢) ١/٩١

(٤) ١/١٠٥ و ٣/٢٢٥

(٦) ١/١٠٦

(١) ١/٦٢

(٣) ١/٩٢

(٥) ١/١١٠

عيباً في الخطيب ، والجاحظ يذكر ذلك ويميل إلى رأى أستاذه النظام
محطلاً رأى أبى شمر ويرجعه إلى صفاته الخلقية والنفسية من الوقار
والتزم (٦٩ و ٧٧ و ١/٧٨) •

ويختلفون كذلك في شيء آخر يمس الخطيب والبليغ ، فهل
السمت والجمال من تمام آلة البليغ أو لا ؟ يورد الجاحظ ذلك ويذكر
بتفصيل رأى سهل بن هرون في عدم عدهما من أدوات البلاغة
(١/٧٦) ، ولا شك أن الجاحظ كان يدافع عن نفسه بما أورده وفصله
في ذلك الموضوع •

وكثرة الكلام يراها بليغ كايأس خيرا وبلاغة ، ولكن الجاحظ
يرد عليه ، لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية (١/٨٢) •••
وكذلك إعادة الحديث من العلماء من ذمة ومنهم من حسده ومنهم من
جعل لحسده مواضع وأسباباً ، والجاحظ يتكلم في ذلك ويدلى برأيه
فيه ويجعله على قدر المستمعين له ودرجاتهم العقلية ، ويعلل سر
ما في الذكر الحكيم من إعادة وتكرير (٨٤ و ١/٨٥) •

والجاحظ يروى وصف ثمامة بن أشرس لبلاغة جعفر بن يحيى
(١/٨٥) ، ويصف هو بلاغة ثمامة (١/٨٩) ، ويصف بلاغة بليغ
يحذر من سحر الكلام وأثره ويدعو إلى اجتناب السوقى والوحشى
والى أن لا يجعل الأديب همه فى تهذيب الألفاظ وشغله فى التخلص
إلى غرائب المعانى (١٧٦ و ١/١٧٧) • والجاحظ هو نفس هذا
البليغ • وكثيراً ما يتكلم فيخرج آراءه فى معرض الرواية عن سواء
لغرض سنعلمه بعد حين ، وذلك كله يستحق الدراسة والامعان ،
لأنه يمس عناصر البيان وبلاغته •

والخطبة يستحسن أن يكون فيها آى من القرآن أو بيت من
الشعر أم لا ؟ يذكر ذلك الجاحظ ويروى مذاهب البلغاء فيه
(١/٩٣) ، ويذكر أن منها الطوال ومنها القصار ، وأن لكل مواضع
تليق به (٢/١٩) •

ويرى العتابي أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، فيذكر الجاحظ ذلك ويحلله (١/١٢١) * والصمت يحمده قوم ويذمه قوم (١٤٣ - ١٤٦ ، ١/١٨٣) والجاحظ يقف من هؤلاء وهؤلاء موقف الناقد الحصيف ، فيناقش رأى من أثر الصمت (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ ج ١) ويدلى برأيه هو فى قوة وروعة ، ذاعيا الى ألا يتمسك البليغ بحكمة الصمت مادام يجد القوة والمقدرة والملكات البيانية المواتية (١/١٤٧) *

والشاعر أو البليغ قد يستطيع فنا من فنون البيان ويجيد فيه دون فن آخر ، ورأى بعض الشعراء حين سئلوا عن عدم احسانهم فى بعض أنواع الشعر وفنونه أن ذلك ليس مرجعه قصورا فى ملكاتهم أو عجزا فى مقدرتهم الأدبية ، والجاحظ يناقشهم ويفيض معهم فى الجدل ذاهبا الى أن الرجل قد يكون له طبع فى فن من فنون الأدب دون فن وفى باب دون باب (٥١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ج ١ ، ٢٥٩ ج ٢) *

وبلاغة المتقربين من اللغويين والنحويين يستسمحها الجاحظ وينقدها ويرى أن فهمهم فيها ليس من أخلاق الكتاب ولا آدابهم (١/٢٤٠) *

وللشعوبيين رأى فى العرب وبيانهم ، والجاحظ لا يدعهم دون أن يجاسبهم ويناقشهم ويرد عليهم فى قوة وحرارة دفاع ، وفى كل ما أخذوه على العرب ، لا سيما ما يمس البيان والبلاغة بوجه خاص (١٥ و ١٦/٣) *

ويرى بعض الباحثين أن أداة الكتابة وقريض الشعر كانت فى رسول الله (ص) معدومة ، فيناقش الجاحظ رأيهم ذاهبا الى أنها كانت فى رسول الله تامة ، ولكنه (ص) صرف تلك القوى الى ما هو أذكى بالنبوة ، وأراد أن لا يكون للشاعر متعلق عما دعا اليه ، وأنه (ص) لما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه

لا ينطق به ، والعادة تؤأم الطبيعة (٣٢٠ و ٣٣١ / ٣) ، ونحن نستجيد
رأى الجاحظ كل الاستجادة ، وعلل الجاحظ أمية رسول الله وعدم
قرضه الشعر في افاضة وقوة بيان (٢ / ٢٢٨) ، وأدلى برأيه في قوله
(ص) : نحن معشر الأنبياء بكاء (٣ / ٢٧٦) .

وأخيرا فهذه هي شخصية الجاحظ في بعض ما ناقش فيه آراء
رجال البيان وهي لعمرى شخصية قوية مهيمنة لا تدعك حتى تؤمن
بالجاحظ وثقافته ومذهبه واتجاهه في الأدب والبيان .

للجاحظ فوق ذلك كله شخصية الباحث في أصول البيان العربي :

١ - فالجاحظ أظهر من تكلم في البيان وحاجته الى التمييز
والسياسة والترتيب والرياضة والى تمام الآلة واحكام الصنعة ، والى
سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف واقامة الوزن وأن
حاجة الكلام الى الحلاوة كحاجته الى الجزالة . وأن ذلك من أكبر
ما تستمال به القارب وتزين به المعاني (١ / ٣٠) ولذلك فقد تحدث عن
عيوب المنطق وآفات اللسان (٣١ و ٣٣ و ٤٤ - ٤٦ و ٥٨ - ٦٢ و ٦٦
و ٦٧ ج ١) ، وتكلم على تنافر الحروف والألفاظ (٦٢ - ٦٤ ج ١)
وفنادى بضرورة تجنب البليغ ألفاظ المتكلمين (١٠٦ - ١٠٨ ج ١)
وبترك الوحشي والسوقي (١١٠ ، ١٧٦ ج ١) وكراهة الهذر والتكلف
والتعقيد والتنعير والاسهاب والفصول (٢١ و ١٤١ و ٢٣٩ ج ١) ،
وفى الكلام الملحون عن أن يكون من البلاغة (١٢١ - ١٢٤ ج ١)
متحدثا عن اللحن واللحنين (١٥٤ - ١٥٥ ج ٢) وذكر البيان وأن
مداره على الأفهام (١ / ٦٨) والوضوح مع شرف المعنى وبلاغة اللفظ
وصحة الطبع والبعد عن الاستكراه والتكلف ومع قوة التأثير وسحر
البيان (٧٣ و ٧٥ و ٨٩ ج ١) وأن يكون الكلام موزونا أصيب به مقدار
الحاجة (١٦١ و ١٦٢ ج ١) مع العارضة واللسن (١٣٠ ، ١٦٣ ج ١)
ومع ترك الاسراف في الصنعة والتعذيب (١ / ١٧٦) ومع استعمال

المبسوط والمقصود في موضع البسط والقصر (١/٢٨١) ومع الطبع
المتمكن والديباجة الكريمة والماء والرواق (٢٢٤ و ٢٢٥ ج ٣) ومتى
شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك
القدر لفظا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف
والفضول والتعقيد ، حجب الى النفوس واتصل بالأذهان وهشت اليه
الأسماع وخف على الألسن وشاع في الآفاق . وكثيرا ما يكرر الجاحظ
اصطلاحات أدبية خاصة مثل (صناعة الكلام) (٦٩ و ٢٢٠ ج ١)
وصناعة المنطق (٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ ج ١) وهو يعنى بذلك هذا
اللون الخاص من البيان البلاغى الذى يرسم مناهج الأداء .

وعنى الجاحظ أكثر ما عنى بالخطابة فأطال الكلام فى أوصافها
وعناصرها وأدواتها ومظاهرها وفى هيئة الخطيب وسمعته ، وذكر عيوبها
وآفاقها ، ودعا الخطيب الى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، وإلى
أن يطيل حيث تجب الاطالة ويوجز حيث يجب الإيجاز ، وذكر أكثر
أعلامها ورجالها حتى عصره ، كما تكلم على رسالة الخطيب وأثرها فى
نفسه ، وأورد من الخطب القصار والطوال الكثير الرائع .

وتكلم على النثر والمحادثة والكتابة : بلاغتها وعناصرها ومذاهب
الكتاب الأدبية فيها ، وعلى سحر الحديث المعاد ، والسجع مطبوعة
ومتكلفة وبلاغة المطبوع منه ، وعلى اللحن وبدء ظهوره واللحافين ،
وكثير من المثل فى لحنهم ، وذكر الحكم والمواعظ والزهد والدعوات
السياسية والدينية وكثيرا من مثلها ، وتكلم على رواية الأدب وطبقات
الرواة من نحويين ولغويين وأخباريين وأدباء واتجاهاتهم فى الرواية .

كما ذكر الشعر وأثره وخطره وألوانه وطبقات الشعراء ، وتحدث
عن مذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة منهم ، وعن الحوليات ورجالها ،
وذكر بعد كلام الله ورسوله عن الشعر ، ومكانة الشعر والشعراء
فى الجاهلية وكيف غلبته الخطابة أخيرا بعد التكسب بالشعر وكثرة
الشعراء ، وحتم على الأدباء الناشئين عرض ثمراتهم الأولى على أولى

العلم ورأى أن اجتماع الشعر والرجز والخطابة قليل ، وقلما ينبه الإنسان في أكثر من فن واحد منها ، وأن الشعر والغناء والنادرة مما يستجد أطرافها دون أوساطها ، وتكلم على استواء الشعاعية واختلافها • الى غير ذلك مما يتصل بصميم البيان ، ومما تراه متفرقا في الأجزاء الثلاثة من كتاب البيان •

٢ - ودعوة الجاحظ في كتابه « البيان » - وفي مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير - الى مذهب أدبي جديد مستمد من عقليته وثقافته وبيئته : هي المظهر القوي من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين • ويمكننا ارجاع هذا المذهب الى عناصره الأولى من : سحر اللفظ وتلاؤم الحرف ، ووضوح ، المعنى وترك التكلف والتعقيد والاعراب والوحشية والسوقية ، ومراعاة المقام واصابة الغاية ، مع الحذف والرفق والتخلص الى حبات القلوب واصابة عيون المعاني في سحر ايجاز ، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه أو طبعه وزيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه ، ومع مساندة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته ، ومع الحرص على ايثار نشاط السامعين والقراء والاحتياال عليه ، بالفكاهة الجميلة ، والاستطراد الساحر ، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته ، والرواية الكثيرة للأعلام الأدب والبيان التي تلقى في روع السامع والقارئ روح الهيبة والاعجاب بهم وبالمؤلف ، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارئ متطلعا مسائرا للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية ، الى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع الى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع الا اذا طلبها الطبع واستدعاها المقام ، ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته انما هو غرض قصد اليه الجاحظ وأراده ، ليشعر القارئ بروحه ويؤمن

بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار ، وليكتسب به رضاه وتقديره
واعجابه . ولا أحيلك في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه ،
فاقرأ أى صفحة وعلى الأخص الجزء الأول من هذا الكتاب ، فستؤمن
معى بما ذكرت .

٣ - وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان :
اتجاه يرمى الى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير
فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر
وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان
الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال الى رقة الأسلوب وسهولته ،
مع حرص على ارضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات
الفكرية والأدبية المتنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه الى الاتجاه
الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة الى هذا الرأى ، فهو حينما يشيد
بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان (١/١٠٥) ، وحينما يكرر الدعوة
الى الوضوح والافهام ومسايرة الذوق والطبع (٧٣ ج ١ و ٢٠
ج ٢ و ٢٢٥ ج ٣) ، وحينما ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر (٥٤ ،
١٥٠ ج ١ و ٢١ ، ٢٥ و ٢٦ ج ٢) ، وحينما يدعو الى ترك التكليف
والتعقيد والتعقير وإيثار الأساليب السمحة الكريمة (١١٠ ج ١ و ٢٠ ،
٢١ ج ٢ و ٢٢٤ ج ٣) .

٤ - وتكلم الجاحظ عرضا على ألوان كثيرة من البيان ، وحال كثيرا
من أساليبه البيانية :

ذكر البديع ، حينما ذكر بعض مثله وأساليبه ، ورأى أنه مقصور
على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وذكر كثيرا من الشعراء
الذين أكثروا منه فى شعرهم ، « ورأى أنه لم يكن فى المولدين أصوب
يلدعا من بشار وابن هرمة (٢٤٢ ج ٣ ، ٥٤ و ٥٥ ج ١) » وتكلم على
ألوان من البيان من سجع ومزدوج وقصيد وأجازة (١٦ ج ٣) ، فأما
السجع فقد تكلم عليه الجاحظ بتفصيل وذكر آراء رجال البيان فيه

وآثر المطبوع منه (١٩٤ و ١٩٥ ج ١) وأما المزدوج من الكلام فقد ذكر له مثلاً في باب صغير عقده له (٩٦ ج ٢) ومن مثله التي ذكرها الحديث : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقله العذاب » • وقول مالك ابن الأخطل في الشعارين « الفرزدق وجري » : جرير يعرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر •

وتكلم على الاستعارة وعرفها حين ساقه الكلام الى ذكر مثل من مثلها ورآها تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه (١١٥ و ١١٦ ج ١) ، و يرجع بعض الأساليب الى الاستعارة (راجع ١/١٩٢) •• وذكر التفصيل والتقسيم حين مر بأسلووين من أساليبيهما (١/١٧٠ ، ٩١ و ٩٢/٢) •• وتكلم على الاستطراد وبلاغته وأثره في التأليف والكتابة (١/١٣٨ ، ٣/١٠٥) •• وذكر كثيراً من مثل الكناية وحللها (١/١٨٠ ، ٣/٣١ ج ٣) ، كما ذكر كثيراً من الأمثال التي ضرب بها العرب المثل (٨٦ ، ١٨٣ ج ١) •• وتكلم على جودة الابتداء ، وجودة القطع والقافية — أي حسن خاتمة الكلام والشعر — (٨٩ و ١٥٥ ج ١) •• وعقد الجاحظ باباً قال فيه : ويذكر الكلام الموزون ويسدحون به ويفضلون اصابة المقدار ، وذكر كثيراً من مثله ، وهذا هو باب الاحتراس الذي ذكره البيانين •• وحلل الجاحظ كثيراً من الأساليب البيانية البليغة (راجع ١٦٣ ، ١٦٦ ج ١ و ٢٠١ ج ٢) تحليلاً بيانياً احتذى حذوه فيه العلماء وذكر مثلاً رائعة للتشبيه (٢/٢٢٩) وأشار اليه في الجزء الثالث ص ٢٤٣ ، وعقد الجاحظ فصلاً من فصول كتابه عنوانه بباب اللغز في الجواب (٢/٢١٦) ، والمذهب الكلامي نوع من البديع كان الجاحظ أول من لقبه^(١) به ، والجاحظ جد خير بمذهب الايجاز وكثير الدعوة والاشارة اليه (٨١ ج ١ و ١٩٨ ج ٢) ، وأشار الجاحظ الى أسلوب القلب (١٨٠ ج ١) ، والى سواد من الأساليب التي يعنى بها علماء البلاغة •

(١) راجع البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجي ، ٢/٧٦ العمدة .

وبعد : فتلك آراء الجاحظ البيانية الخاصة به ، وهى وإن كانت دراسات موجزة مفرقة إلا أنها على كل حال ذات أثر كبير فى خدمة البيان العربى ♦♦



اول صحيفة فى البلاغة لبشر بن المعتمر عن البيان والتبيين للجاحظ

مر بشر بابراهيم بن جبلة بن مخزومة السكونى الخطيب وهو يعلم
الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه اتما وقف ليستفيد
أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر ، اضربوا عما قال صفحا واطووا
عنه كشحا ♦♦ ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقة ، وكان أول
ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فإن قليل
تلك الساعة أكرم جواهر ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاسماع . وأحلى
فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ
شريف ومعنى بديع ♦♦

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد
والمطاوله والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطاك ام يخطئك أن
يكون مقبولا قصدا وخفيضا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه
ونجم من معدنه ♦

واياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد
ستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا
كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن
تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون
أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس اظهارهما وترتهن نفسك بملاستهما
وقضاء حقهما ♦

وكن فى ثلاث منازل أ فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا
عذبا وفخما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفيا وقريبا معروفا ،
أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة ان كنت
للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف أن يكون من معانى الخاصة ،
وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف
على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من
المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان
لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة
معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلتطف عن الدهماء
ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك
عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر
الى قرارها والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى
مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها فافرة من
موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ،
فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام
المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا
مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل
عييا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . . فان ابتليت بأن تتعاطى
الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعصى
عليك بعد اجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد
ليلك وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الإجابة والمواتاة
إن كاث هناك طبيعة أو جرئت من الصناعة على عرق .

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير
طوال اهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة الى أشهى
الصناعات اليك وأخفها عليك ، فانك لم تشتته ولم تنازع اليه الا وبينكما

نسب ، والشئ لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون
فى طبقات الأبن النفوس لا تجود بسكونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة
كما تجود مع المحبة والشهوة ، فكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على
ابراهيم قال لى ، أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان .

مؤلفات متأخرة فى البلاغة

١ - من شروح تلخيص المفتاح للخطيب : شرح للخلخالى
م ٧٤٥ هـ ، وشرح للزوزنى م ٧٩٢ ، شرح لابن عربشاه م ٩٤٥ ،
وقد شرح العباسى أبيات التلخيص فى كتابه « معاهد التنصيص »
ونظمه السيوطى فى كتابه « عقود الجمان » . وقد شرح جمال الدين
محمد بن محمد الأقرائى م ٨٠٠ هـ كتاب الايضاح للخطيب القزوينى
فى كتاب أسماه « ايضاح الايضاح » . (٢ و ٤٥٩) بلاغة -
دار الكتب المصرية - مخطوطات .

٢ - وعلى المطول حواش كثيرة : منها حاشية السيد م ٨١٦ ،
وحاشية الفنى م ٨٨٦ ، وحاشية ملا خسرو م ٨٨٥ ، وحاشية
السيرامى المصرى م ٨٣٣ وحاشية الحفيد م ٩٠٦ هـ ، وحاشية
الشيرازى م ٩٩٤ هـ ، وعز الدين بن جماعة م ٨١٩ هـ ، والبساطى
م ٨٤٢ هـ ، والسمرقندى م ٨٨٠ هـ ، وعبد الحكيم السيلاكوتى
١٦٠١ هـ .

٣ - ومن الكتب المتأخرة فى البلاغة : الجوهر المكنون لعبد الرحمن
الأخضرى وقد شرحه ابن يعقوب ، والشيخ أحمد الدمنهورى م ١١٩٢ هـ .
ومنها : تحفة الأعواز فى علاقات المجاز للسجاعى م ١١٩٧ ،
وتحفة الاخوان فى علم البيان للدردير م ١٢٠١ هـ ، والرسالة البيانية
للصباى م ١٢٠٦ هـ ، والتجريد للبنان م ١٢١١ هـ ، وحسن الصنيع
للشيخ البسيونى م ١٣١٣ هـ ، وزهر الربيع للحملوى م ١٣٥٢ هـ ،

والبلاغة الواضحة للجارم المتوفى فى ٨ فبراير ١٩٤٩ ، وكتاب « فن القول » للأستاذ أمين الخولى . وهناك مذكرات قيمة مطبوعة فى بحوث البلاغة للأستاذ سليمان فوار ، وللأستاذ حامد غونى . . . وللشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء كتاب قيم فى البلاغة سينشره عما قريب ، وله محاضراته البلاغية التى كان يلقيها فى قسم الأستاذية بكلية اللغة العربية ، والتى أفاد منها جمهور كبير من العلماء .

تطبيقات

— ١ —

عين الأساليب الخبرية والانشائية فيما يأتي :

١ — « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

٢ — « يمحى الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم » .

٣ — « يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

٤ — قال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

٥ — ومن وصية عبد الملك بن مروان لأولاده : يا بني ، كفوا إذاكم ، وابذلوا معروفكم ، واعفوا إذا قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتكم ، ولا تلحفوا إذا سألتكم ، فإن من ضيق ضيق الله عليه ، ومن أعطى أخلف الله له .

٦ — قال أبو العلاء المعري :

لا تحلفن على صدق ولا كذب فما يفيدك الا المأثم الحلف

٧ — وقال :

لا تفرحن بما بلغت من العلا وإذا سقيت فعن قليل تسبق
وليحذر الدعوى اللبيب فانها للفضل مهلكة وخطب موبق

٨ - وقال أبو العتاهية :

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

٩ - وقال :

يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذي لا ينقضى تبعه

١٠ - وقال :

ما أحسن الدنيا واقبالها إذا أطاع الله من فالهنا
من لم يؤاس الناس من فضلها عرض للادبار اقبالها

١١ - وقال الشاعر :

أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيل
وكيف يسود أخو فطنة يمن كثيرا ويعطى قليلا

١٢ - وقال سعيد بن حميد :

وأراك تكلف بالعتاب وودنا صاف عليه من الوفاء دليل
والعمل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول

بين أساليب الخبر وأدوات التوكيد في الأمثلة الآتية :

١ — « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خير » •

٢ — « وفي السماء رزقكم وما توعدون • فرب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » •

٣ — وقال صلى الله عليه وسلم : « شر الناس الذين يكرمون اتقاء السيئات » •

٤ — وقال علي كرم الله وجهه : « مارست كل شيء فغلبت ، ومارست الفقر فغلبتني ، ان سترته أهلكني ، وان أذعته فضحتني » •

٥ — وقال النبي عليه السلام يصف الأنصار : « انكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » •

٦ — وقال بشار بن برد :

خليلي ان المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصديق

٧ — وقال أبو العتاهية :

ان البخيل وان أفاد غنى لثرى عليه مخايل الفقر
ما فاتني خير امرئ وضعت عنى يداه مئونة الشكر

٨ — وقال آخر :

وللحلم خير فاعلمن مغبه من الجهل الا أن تشمس من ظلم

٩ - وقال حسان بن ثابت :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال أن أودي فأكسبه ولست للعرض أن أودي بمحتال

١٠ - وقال المقنع الكندي يعاتب قومه ، ويصف وفاءه لهم :

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هم هروا غيى هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحق القديم عليهم وليس رئيس القول من يحمل الحقدا
لهم جل مالي إن تنابع لي غنى وإن قل مالي لم أكلهم رفدا
وإنى لعبد الضيف ما دام فزلا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

١١ - وقال رجل من فزارة يفخر بشرف خصاله وجوده :

ألا يكن عظمي طويلا فأنى له بالخصال الصالحات وصول
ولا خير في حسن الجسوم وطولها إذا لم تزن حسن الجسوم عقول
إذا كنت في القوم الطوال علوتهم بعارفة حتى يقال طويل
وكم قد رأينا من فروع كثيرة تموت إذا لم تهيئ أصول
ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه فحلوا ، وأما وجهه فجميل

١٢ - وقال سعيد بن سلم الباهلي : مدحني أعرابي فأبلغ ،

فقال :

ألا قل لسارى الليل لا تخش ضلة سعيد بن سلم نور كل بلاد

لنا سيد أربى على كل سيد جواد حشا فى وجهه كل جواد

قال سعيد : فتأخرت عنه قليلا ، فهجاني ، فأبلغ ، فقال :

كل أخى مدح ثواب علمته وليس لمدح الباهى ثواب
مدحت سعيدا والمديح مهزة فكان كصفوان عليه تراب

وفى هذا الشعر اشارة الى قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
صَلْدًا » .

١٣ - وقال الشماخ يمدح عرابة بن أوس الأنصارى :

رأيت عرابة الأوسى يسمو الى العلياء منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

١٤ - وقال بشار بن برد فى العتاب :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
فعش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أفت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربته

١٥ - وقال ابراهيم الصولى يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات
وقد تغير عليه بعد ما صار وزيرا :

وكنت أخى باتخاء الزمان فلما نبا صرت حربا عوانا
وكنت أذم اليك الزمان فأصبحت فيك أذم الزمانا

وكنيت أعدك للشائبات فأصبحت أطلب منك الأمانا

١٦ - ومن الهجو قول جرير يهجو تيمًا :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود
وانك لو رأيت عبيد تيم وتيما قلت أيهم العبيد

١٧ - وقال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

ألمأ على معن وقولا لقبره سقتك الغواذي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف وارىت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتنى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

١٨ - ولقطري بن الفجاءة في الحماسة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لمن تراعى
فانك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
وما للمرء خير في حياة اذا ما عد من سقط المتاع

١٩ - وقال الشاعر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو ، وأما وجهه فجميل

٢٠ - وقال صردر :

قذال الرجال الأطماعها كذل العبيد الأربابها
وأعلم أن ثياب العفا ف أجمل زى لمجتابها
أى للابسها .

٢١ - وقال آخر :

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى اذا هو لم يجعل له الله واقيا
٢٢ - وقال سعيد بن حميد فى العتاب :

أقبل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويسيل
ولعل أحداث المنية والردى يوما ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقت لتبكين بحسرة وليكثرن على منك عويل
ولئن سبقت - ولاسبقت - ليمضين من لا يشاكره لدى خليل
وليذهبن بهاء كل مروعة وليفقدن جمالها المأهول

عين الأغراض المستفادة من الخبر في الأمثلة الآتية :

١ - قال تعالى : « لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله على كل شىء قدير » .

٢ - وقال تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتفه الذكري ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » .

٣ - قال صلى الله عليه وسلم : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » .

٤ - وقال : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله » .

٥ - ومن خطبة له عليه السلام بمكة حين دعا قومه الى الاسلام :
إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غرت
بالناس ما غرتكم ، والله الذى لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم
خاصة ، والى الناس كافة .

٦ - قال الشريف الرضى :

جار الزمان فلا جواد يرتجى	للنائبات ولا صديق يشفق
واذا الحليم رمى بسر صديقه	عمدا فأولى بالوداد الأحق

٧ - وقال المعري :

عرفت سجايا الدهر ، أما شروره
فنقدت ، وأما خيره فوعوده

٨ - وقال :

رأيت سكوته متجرا فلزمته
إذا لم يفد ربها فليست بخاسر

٩ - قال ابن حيوس مادحا :

بنى صالح أقصدتم من رميتهم
وذللتم صعب الزمان لأهله
مناقب لو أن الليالي توشحت
بأذيالها لا يبيض منهن ما أسودا

١٠ - وقال أبو فراس :

صيرت على اللأواء صبرا ابن حرة
منعت حمى قومي وسدت عشيرتي
كثير العدا فيها قليل المساعدا
وقللت أهلي غر هذى القلائد

١١ - وقال يخاطب سيف الدولة :

وكم لك عندي من أياذ وأنعم
وانك للمولى الذي بك أقتدى
رفعت بها قدرى وأكثر حسدى
وانك للنجم الذى بك أهتدى

١٢ - وقال :

ونحن أناس لا توسط بيننا
تهون علينا فى المعالى نفوسنا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
ومن يخطب الحسناء لم يغلبها المهر

١٣ - وقال ابن الرومي في رجل اسمه عيسى :

يقتصر عيسى على نفسه وليس بياق ولا خالدا
ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

١٤ - وقال أبو العلاء :

بلوت أمور الناس من عهد آدم فلم أر إلا هالكا أثر هالك
إذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

١٥ - وقال أعرابي يرثي ولده :

بنى لئن ضنت جفون بمائها لقد قرخت مني عليك جفون
دفنت بكفى بعض نفسي فأصبحت وللنفس منها دافن ودفن

١٦ - قال زهير في قوم هرم بن سنان :

قوم أبوهم سنان حين تسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

عين المسند والمسند اليه ، وبين الأساليب الخبرية والانشائية ،
واذكر أغراض الخبر فيما يأتي :

١ - قل تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات
ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبث منه
تنفقون ، ولستم بأخذيه إلا أن تنفقوا فيه ، واعلموا أن الله غني
حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة
منه وفضلا ، والله واسع عليم * يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت
الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » .

٢ - قال عليه السلام : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى
حظه من الخير كله ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من
الخير كله » .

٣ - وقال : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن
أنه قد علم فقد جهل » .

٤ - ومن خطبة لخالد بن عبد الله القسري : « فافسوا في
المكارم ، وسارعوا إلى المغايم ، واشتروا الحمد بالجدود * . واعلموا
أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملوا النعم
فتحولوها نقما » .

٥ - ومن رسالة لابن زيدون : « قد يغص بالماء شارب به ،
ويقتل الدواء المستشفئ به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية
المنمنى في أمنيته * . وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ،
والشفاعة زكاة المروعة ، وفضل الجاه تعود به صدقة :

واذا امرؤ أسدى إليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله

٦ - قال أبو العتاهية :

إذا ما مضى القرن الذى أنت منهم وخلفت فى قرن فأنت غريب
وان امرأ قد سار خسين حجة الى منهل من ورده لقريب

٧ - وقال أبو العلاء :

احذر سليلك فالنار التى خرجت من زندها ان أصابت عود فاحترقا

٨ - وقال الأخطل :

وان امرأ لا ينثنى عن غواية اذا ما اشتتها نفسه لجهول

٩ - وقال حسان بن ثابت :

وان امرأ يمسى ويصبح سالما من الناس الا ما جنى لسعيد

١٠ - وقال المتنبي :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

١١ - وقال الحسين بن مطير :

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقّر الرجال فان يهابا

١٢ - قال رجل من طيء :

ومن يفتقر في قومه يحمده الغنى
وبزري بعقل المرء قلة ماله
وان كان فيهم واسط العم مخولا
وان كان أسرى من رجال وأحولا

١٣ - الشاعر :

ان الطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يشفى مثله فيما مضى

١٤ - قال عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فاني
يساعده القريب وتزدرية
وتلقى ذا الغنى وله جلال
قليل ذنبه والذنب جم
رأيت الناس شرهم الفقير
حليلته وينهره الصغير
يكاد بقواد صاحبه يطير
ولكن للغنى رب غفور

١٥ - وقال قيس بن عاصم المنقري في قومه :

خطباء حين يقول قائلهم
لا يظنون نعيب جارهم
بيض الوجوه مصقع السن
وهم لحفظ جواره فطن

١٦ - وقال وعلة بن الحارث :

قومي هموا قتلوا - أميم - أخي
فاذا رميت يصيني سهمي

١٧ - وقال المتنبي :

ذل من يغبط الذليل بعيش
رب عيش أخف منه الحمام

بحمد الله وتوفيقه تم طبع الجزء الأول
وبإذن الله يليه الجزء الثاني



